رواية

هاجر شلبي

المبنى الأسود

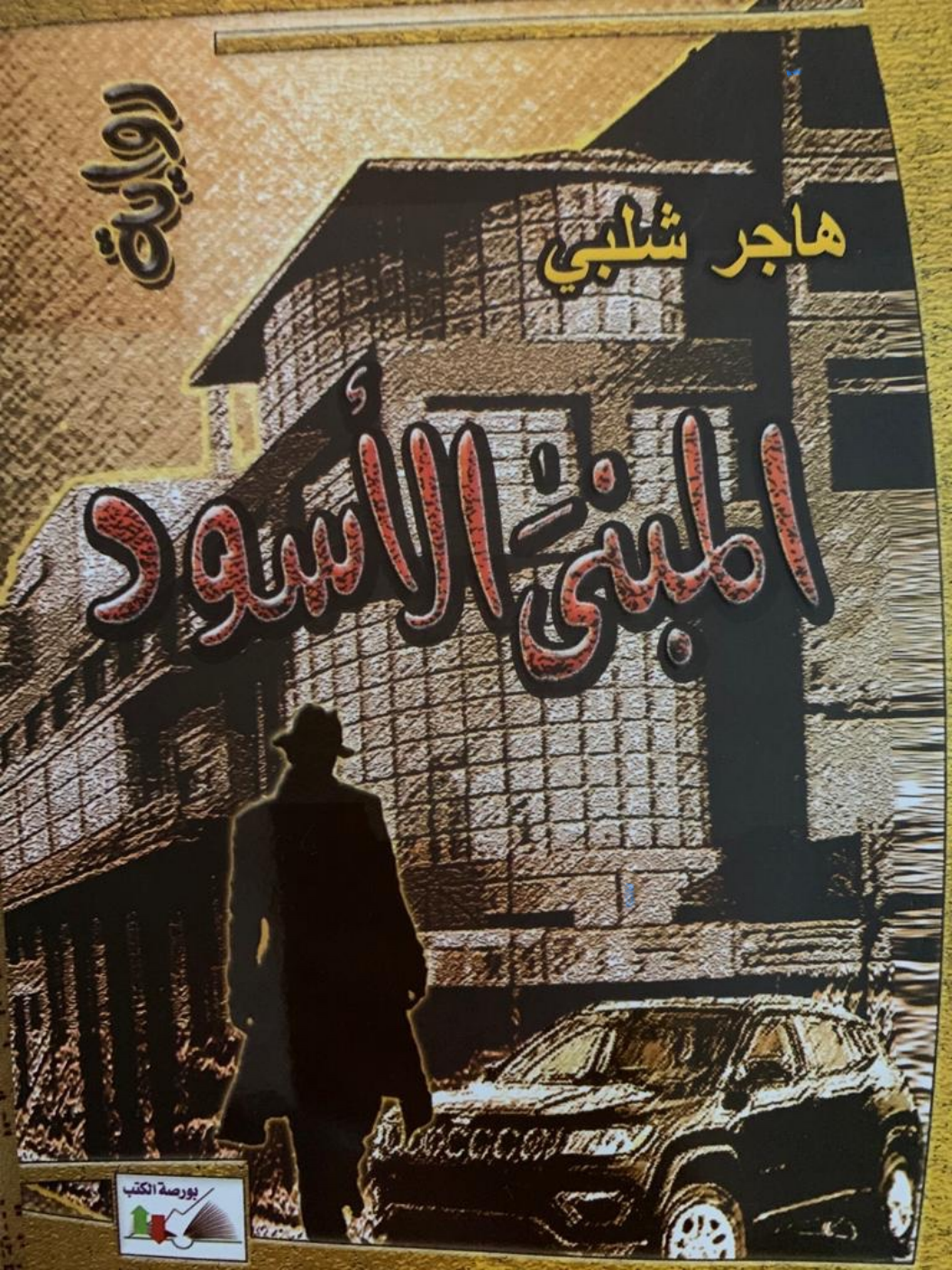

بورصة الكتب

رواية

المبنى الأسود

ART TREE
ارت تري
Service for small industraial fields
خدمة المجالات الصناعية الصغيرة

المبنى الأسود

هاجرشلبي

رواية

مقدمة

عندما تعانق الروح الجسد فهذه هي الحياة.
عندما تسكن الطمأنينة في قلوبنا فهنا يكمن الأمان.
عندما نمتلك الإرادة الحقيقية بأنفسنا لنساهم في الاختيار فهذا أساس الحرية.
عندما يتحقق الاستقرار بكل معانيه في جميع بقاع العالم فإننا نحيى بسلام.
عندما تُرد الحقوق إلى أصحابها بكافة أشكالها فهذا هو المعنى الحقيقي للعدل.
هكذا تعيش البشرية في عالم لا مكان فيه للحاقد والكاره والمستغل وغيرهم ....
هكذا نستحق الحياة.

هاجر شلبي

تنويـــه

أحداث الرواية من وحي خيال الكاتب ، وليس هناك أي تشابه بينها وبين الواقع.

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى

روح أبي الحبيب الغالي على قلبي ، الذي لا تزال كلماته

ومواقفه محفورة في ذهني:

رءوف شلبي

حادث غامض

مع لحظة ظهور خيوط الأشعة الذهبية في الأفق يخالطها ابتسامة شمس هذا الصباح ؛ لتصافح سماء القاهرة ، بدأت الشوارع تزدحم بالناس حيث يسعى الكل إلى عمله ، والمحلات تفتح أبوابها ، ومعروضاتُها تقف من جديد خلف واجهاتــها لجـذب المــارة.

ومع مرور الوقت الساعة تلو الأخرى تزداد أعداد أصحاب الأعمال والباحثين عن الرزق حتى يصل السعي إلى ذروته ، فيقف الزمن عند وقت محدد ؛ ليتراجع على إثره ذاك الازدحام و يقل الضجيج في شارع عماد الدين، فحلَّ الهدوء نوعًا ما ، وقد أخذت ابتسامة تلك الشمس تتلاشى بعض الشيء على هذا الشارع ، وكأنها تنذر بحلول مأساة في وسط البلد ، إذ بصوت مدوٍّ يَسمع صداه كلُّ من حوله لسقوط جسم من أعلى مبنى يرتطم بسقف سيارة كاد صاحبُها يفتح بابَها لينطلق بها إلى حيث يريد ، ولكن من شدة الارتطام وقع هذا الرجل على الأرض في فزع وذهول دامَ لحظات من هول الموقف ، فاجتمع الناس حول السيارة تصوب نظراتُهم إلى الجسم المرتطم بدهشة ، وقد استدعى أحدهم الإسعاف والشرطة.

ما وراء نافذة المقهى

وفي شارع نجيب الريحاني ، وفي أحد المقاهي ، كانت تجلس على كرسي بجانب النافذة المطلة على الشارع ، تحتسي قهوة فرنسـية ، فأخذت منديلًا وردي اللون من حقيبتها الصغيرة مطبوعًا عليه (شكرًا) لتضعه تحت الفنجان فقد اعتادت على ذلك ، وأمامها على الطاولة آلة تصوير خاصة بها ، وعيناها تتأملان في أجواء الشارع من وراء زجاج النافذة ، فإذا صوتٌ يقطع تأملها صادر من سيارة إسعاف تعقبها سيارة الشرطة ، فوضعت فنجان القهوة على الطاولة تبحث عن مصدر هذا الصوت ، فرأت السيارتين تمران مسرعتين من وراء النافذة ، فقامت مسرعة إلى خارج المقهى تراقبهما حتى وجدتهما يتجهان إلى شارع عماد الدين ، فرجعت إلى المقهى في عجلة تنادي النادل ، وقد تركت له حقَّه مع عطية على الطاولة بجانب الفنجان ، ثم حملت آلة التصوير ؛ لتركض خارجًا حتى تصل إلى حيث ذهبت الشرطة.

صورة بين الزحام

في شارع عماد الدين اجتمع حشد من الناس أمام المبنى ، وسيارة الإسعاف بابُها الخلفي مفتوح ، ورجال الشرطة ملتفون ، وبين ذلك كله اقتربت سالي قليلًا من مكان الجثة لكنها لم تستطع أن ترى شيئًا من الازدحام ، فحاولت أن تشق طريقًا لها بين هذا الجمع من الناس بحجمها الصغير ، حاملة آلتها في حرص شديد كي لا تفلت من يدها وسط هذا الزحام لكنها وجدت نفسها في مأزق ، حيث رجل ضخم البنية يقف على يمينها ، وامرأة خلفها تضع يدها على كتفها ، و آخر كاد يدهس قدمها فصرخت قائلة:

قدمي ... كتفي .... ألا أجد مَن يخرجني من هذا المأزق؟

فإذا بيدٍ تشد ساعِدَها لتصل بها إلى رجال الشرطة ، و بعد وصولها جاء أحدهم يعترضها محاولًا إبعادها عن هذا المكان ، فكادت ترجع إلى الزحام مرة أخرى وهي تردد بصوت عالٍ رافعة آلة التصوير :

أنا صحفية .. أنا صحفية ، أريد التقاط صورة.

لكن أحد رجال الشرطة أراد إخراجها بالقوة ، فإذا بصوت أجش يأمره بعدم التعرض لها سامحًا لها بالاقتراب ، فانتبهت سالي لهذا الصوت المألوف على أذنيها ، فإذا هو صوت ضابط يعمل في مجال التحقيقات (الرائد يوسف) ، فاتجه إليها قائلًا:

أعتذر سيدتي عن هذا الموقف الذي تعرضتِ له.
فردت عليه في تنهيدة:
لا عليك.

***

المعاينة و الفحص

طلب الرائد يوسف من رجال الشرطة استدعاء الطبيب الشرعي وأثناء ذلك أخذت سالي تلتقط صورًا للجثة وما حولها ، وفي ظل انتظار الطبيب تراجع يوسف بضع خطوات واضعًا يده على ساعته يحركها كعادته ، رافعًا بصره إلى المبنى ربما يجد أي خيط بداية يستطيع من خلاله أن يبدأ في الوقوف على ملابسات هذا الحادث ، وأثناء ذلك تذكّر حادثة وقعت منذ شهر في منطقة (الهرم) مشابهة تمامًا لما وقعت منذ ساعات.
حضر الطبيب الشرعي و قد طلب يوسف من رجال الشرطة إخلاء مكان الحادث مما تبقى من جموع الناس ، وأثناء ذلك شرعت سالي تسرع في أخذ أقوال بعض شهود العيان ، أما الطبيب الشرعي فقد جثا على ركبتيه منحنيًا نحو الجثة يتأمل فيها ، و يقلبها متفحصًا لعله يجد أثرًا لطعن أو ضرب لكنه لم يتوصل إلى نتيجة ، فحمل رجال الإسعاف الجثة للذهاب بها إلى المشرحة لاستكمال فحصها.

ذات الشعر الأحمر

وقفت سالي لحظات تتأمل فيما حولها من مبنى و حركة رجال الشرطة والناس المحيطة بها ، فإذا عيناها تقع على سيدة واقفة على الرصيف المقابل لها تنظر نحوها بنظرات مريبة ، وكأنها تراقبها عن بعد ، فأسرعت سالي إليها تراودها الشكوك تجاهها تريد معرفة هويتها ، فهل لها علاقة بالحادث؟

وفجأة ركضت السيدة في اتجاه آخر ، و سالي تناديها:

سيدة ..... يا ..... معذرة.....

لكن تلك السيدة لم تلتفت إلى ندائها بل غابت عن بصرها ، فأصابت سالي الدهشة والتعجب من تصرفها ، وقد بدأت شكوكها تتزايد تجاه تلك السيدة من موقفها الغريب ، وبينما هي واقفة حائرة فإذا يدٌ تحرك حقيبتها قليلًا ؛ ففزعت ملتفتة خلفها في سرعة ، فوجدت الرائد يوسف يمازحها ، ثم سألها مستغربًا:

ما بالك؟؟ لماذا أراك واقفة شاردة الذهن حائرة العينين؟!

أخبريني .. هل هناك ما يقلقك؟

ردت سالي ولا تزال ملامح الدهشة تملأ وجهها:

كنت واقفة أتأمل لحظاتٍ في ذاك الحادث ، فلفتت نظري سيدة كانت تقف أمامي ... هنا مكان وقوفنا ....

مشيرة بيدها إلى حيث تقصد تستكمل حديثها:

وعندما أسرعتُ إليها وجدتُها تركض فجأة مسرعة.

بدت على وجه يوسف ملامح التعجب لما سمعه فسألها:

وفي أي اتجاه ركضت؟!

أشارت بإصبعها إلى حيث ذهبت المرأة قائلة:

ركضتْ باتجاه هذا الطريق المزدحم ..

.. هناك....

فسألها يوسف وهو ينظر إلى الطريق المشار إليه:

هل تستطيعين التعرف عليها إذا رأيتها مرة أخرى؟

فردت في ثقة:

نعم بالتأكيد ، فهي ترتدي معطفًا رماديًا ، وشعرها أحمر اللون منسدلًا على كتفها.

فقال يوسف:

إذًا فلنمضِ سويًا باتجاه هذا الطريق ، فإذا رأيتِها أخبريني في هدوء.

فقالت:

حسنًا ، هيا بنا..

سار يوسف وسالي باتجاه الطريق الذي سلكته تلك السيدة ، وكل منهما ينظر أمامه ، ويدير عينيه يمينًا ويسارًا فوجهت سالي سؤالًا إلى يوسف وهما لايزالان في طريقهما:

أ تعتقد أن بإمكاننا إيجادها؟

فقال لها:

لا أدري ، و لكننا نحاول فربما نستدل عليها أثناء سيرنا.

هذا إذا ظلتْ بنفس الثياب الذي وصفتِه.

حوادث مشابهة

تابع كلٌّ منهما السير ، يراقبان مَن حولهما خاصة من ترتدي معطفًا رماديًا ، فقالت سالي متسائلة:

ما رأيك في الواقعة التي حدثت اليوم؟

وإلام توصلتَ مبدئيًا؟

رد عليها و فكره منشغل في الحادث:

في يوم ما ذهبت إلى ضابط صديقٍ لي في قسم الهرم ، فعرفتُ بحادثة وقعت منذ شهر في تلك منطقة ، حيث سقط ضحيتها من المبنى ، فأتمنى ألا تكـون نتيـجة المعمـل الجنـائي هـذه المرة كنتيجة حادثة (الهرم).

فانتبهت سالي إلى كلامه سائلة:

ماذا؟؟ وماذا كانت النتيجة؟

لكن حوارهما قُطع حيث وجدا أنفسهما في تلك اللحظة يمشيان هباءً ؛ فلم يعثرا على السيدة الغامضة حتى وصل إليهما اليأس في ظل هذا الازدحام ، فاقترح يوسف على سالي أن يدخلا مقهى لاحتساء فنجانين من القهوة وهُما يستكملان حديثهما ، فدخلا مقهى في شارع عماد الدين ، ثم نظرت سالي إلى المكان فأشارت إلى طاولة بجانب النافذة ، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي يوسف وقد احترم رغبتها ، ثم جلسا فطلب يوسف القهوة ثم رد عليها:

سالي ..... لم يجد الطب الشرعي أي أثر لطعن أو ضرب بآلة حادة أو سمٍّ ، لم يجد إلا آثار شدة الارتطام على الأرض فأغلق

ملف هذا الحادث على انتحار الضحية ، وهذا ما جعلني في حيرة من أمري تجاه هذه الحادثة ، فلا شك في أنها قد تمت بنفس الطريقة ، و ربما نفس النتيجة.

ارتسمت ملامح الاستغراب على وجه سالي قائلة:

نفس الطريقة!!

فأخرجت من حقيبتها منديلًا مطبوعًا عليه كلمة (شكرًا) كما اعتادت ، وهي تسأله في اهتمام:

أخبرني .. كيف وقعت حادثة (الهرم)؟

تنهد يوسف تنهيدة قصيرة وعيناه تنظران إلى المنديل ، و قد أحضر النادل القهوة فسكت لحظة ثم أجاب:

بلغنا خبر وقوع حادثة لسقوط شخص من مبنى في منطقة الهرم ، فذهبنا مباشرة إلى موقع الحادث وقد وجدنا جثة رجل ملقاة على الأرض والدماء تسيل ، وعندما أخذنا أقوال شهود العيان تبين لنا أن الجثة سقطت من الطابق الحادي عشر فصعدنا إلى الطابق حيث كان باب الشقة مفتوحًا ، وسيدة جالسة في البهو تبكي بكاءً حارًا و حولها بعضٌ من جيرانها ، فبحثنا في أنحاء الشقة عن أي دليل ، لكننا لم نستدل على أي أثر يفسر لنا ما حدث ، و عندما استجوبنا تلك المرأة زوجة الضحية لم تفدنا ، فسألنا جيرانه عن سلوكه وعلاقاته فكانت الإجابة معاملته الحسنة وسمعته الطيبة ، فانتهينا إلى أنه لم يكن هناك ما يستدعي الانتحار حتى إن المعمل الجنائي لم يجد آثارًا تدل على ارتكاب جريمة على الإطلاق أو بصمة غريبة ، فأُغلق ملف.....

هوية ذات الشعر الأحمر

استوقفت سالي حديثَ يوسف بصياحها ، وهي تنظر إلى النافذة قائلة:

رأيتها ، رأيتها ، ذات الشعر الأحمر .

فنهضت من مكانها منطلقة إلى باب المقهى ، ويوسف وراءها يسألها في لهفة:

أين ؟ أين ؟

فردت وهي ترفع حاجبًا تشير بعينيها:

ها هي .... هيا .

سار يوسف وسالي وراء السيدة ذات الشعر الأحمر في حذر ، يراقبانها عن بعد إلى أن دخلت شارع سليمان الحلبي ، وظلا يمشيان وراءها في هذا الشارع ، وفجأة وقفت السيدة وقد أوشكت أن تكشفهما ، لكنها فتحت حقيبتها لتخرج الهاتف المحمول ، فالتفتت إلى يمينها ثم استكملت طريقها ، وأثناء ذلك كان يوسف وسالي على مقربة من متجر للأجهزة الإلكترونية ، فدخلا إليه مسرعيْن حيث أخذ يوسف ينظر إلى ساعات اليد الحديثة كعادته ، و هو يرفع عينيه على سالي يتابعها تارة ، و يخفضها على الساعات تارة ، بينما تقف سالي بجانب الباب تصوب نظرتها إلى السيدة حتى دخلت مبنى سكنيًا ، فأشارت إلى يوسف بعينيها ليخرج إليها ، فأخبرته بما رأت ، ثم نظر كل منهما إلى الآخر في ذهول ينطقان بلسان واحد:

هنا يسكن حامد رئيس الجريدة !!!

لكن يوسف فكر هنيهة ثم قال:

ابقي هنا ، تجولي في هذا المكان ولا تبتعدي.

ثم أسرع ليلحق بالسيدة حتى يعرف إلى أي شقة تصعد ، وعند دخوله المبنى وجد المصعد مغلقًا ، ثم سمع صوتًا يصعد على الدرج فصعد وراءه خافضًا رأسه قليلًا ، ثم وجدها تقف عند الطابق الثالث لتدخل الشقة ، فإذا به يُفاجأ بأنها شقة حامد رئيس جريدة الخبر الناطق حيث تعمل سالي.

انتظر يوسف لحظات بعد دخول المرأة الشقة ، وبعد ذلك استكمل صعوده على الدرج ثم طرق الباب ، لكنه سمع صوتًا من وراء الباب يشوبه شيء من الاضطراب يسأله:

مَن الطارق؟

فرد:

يوسف.

فتحت له تلك السيدة ، وقد تغير لون وجهها وازدادت اضطرابًا عند رؤيته أمامها ، أما يوسف فقد تفاجأ بشعرها الأسود القصير مرتدية نفس المعطف الرمادي ، فتبسم في وجهها كاشفًا هويتها قائلًا :

أ حامد موجود ؟

ردت بصوت مضطرب وعلى وجهها ملامح القلق:

نـــ .....نعم ، نعم ..

سر الصديق

سمحت السيدة ليوسف بالدخول ، فدخل هذه المرة يتأمل فيما حوله بصفته شرطي ، ثم جلس في غرفة الاستقبال ينتظر حامدًا ، و بعدما مر من الوقت عشر دقائق دخل عليه حامد مرحبًا ، وسالي أثناء ذلك تتجول في الشارع تنظر إلى ساعتها ، بينما يوسف جالس مع حامد بعض الوقت فربما يجد ما يكشف السر وراء زوجة صديقه ، فسأله وعيناه تحدقان إليه:

أ سمعتَ يا حامد بالحادثة التي وقعت منذ ساعات؟

رد عليه حامد وقد بدت عليه علامات الاضطراب:

نعم ... نعم سمعتُ بها....

فقال يوسف:

إنها تشبه حادثة الهرم أ تتذكرها؟؟ لكنها هذه المرة حادثة سقوط رجل من مبنى في شارع عماد الدين ..

وأثناء ذلك لاحظ يوسف على حامد انعقاد حاجبيه وشرود عينيه ، وقد أمسك بعلبة السجائر يهزها بعض الشيء ثم استطرد كلامه:

ممن سمعتَ بهذه الحادثة؟

رد عليه حامد وقد أخرج سيجارة من العلبة:

من زوجتي سارة ..

ثم أخذ القداحة من على الطاولة فأشعل السيجارة ليدخن ، أما يوسف فقد سكت قليلًا مندهشًا من حال حامد و زوجته سائلًا نفسه:

ما بالهما ؟!!

لمَ تنكّرت زوجته عندما خرجتْ؟!!

وما الذي يُخبئانه في شأن تلك الحادثة؟

ما علاقتهما بـ .....؟!

قطع حامد ما يجول في خاطر يوسف من تساؤلات بقوله:

يوسف ... ماذا بك ؟؟ ما الذي يجول في خاطرك؟

فانتبه يوسف ثم أجابه:

لا شيء ... مجـرد إرهاق من العمل ، فأنت تعـلم متـاعب هذه المهنة .

ثم قام فجأة متذكّرًا سالي وهي تنتظره في الشارع ، فاستأذن بالانصراف.

خرج يوسف من بيت حامد ، وسالي تمشي هنا وهناك تمر على بعض المحلات حتى غلب عليها شيء من الغضب ، ثم وقع بصرها عليه بعد خروجه من البيت يلتفت يمينًا ويسارًا باحثًا عنها ، فذهبت إليه مسرعة ثم سألته بعد تنهيدة طويلة:

لِمَ كل هذا التأخير ؟

هل هناك خطب ما؟

فأجابها واضعًا يده اليمنى في جيبه مبتسمًا لما توصل إليه من أخبار:

السيدة التي رأيتِها هي نفسها زوجة حامد ، كانت متنكرة بهذا المعطف والشعر المستعار.

ملأ وجه سالي علامات الدهشة قائلة:

فاجأتنـي بهـذا الخبـر ، لم أتوقـع ذلك ، ولكن لِمَ تنكـرَت ؟؟

فاستكمل يوسف:

وستتعجبين أكثر عندما أخبرك أن حامدًا كان قلقًا و متوترًا عندما حدثته بواقعة اليوم.

فقالت سالي مستغربة:

أستاذ حامد !! لماذا؟!

رد عليها مُخرجًا يده من جيبه:

لا أدري ، لا بد أن أعرف ، فربما يوصلني إلى تفسير لغز هذه الحوادث .. هيا بنا..

***

حادثة جديدة

كل يوم تعتاد سالي الخروج إلى عملها حتى أتى يوم استعدت فيه للذهاب إلى الجريدة ، وقد أعدت أمها الفَطور ، وبينما كانت تتناول شيئًا من الفطور استوقفها خبرٌ أذيع من خلال التلفاز لوقوع حادثة أخرى لسقوط رجل من أعلى مبنى ، فوقفت فجأة تاركة فطورها ، آخذة في يدها كوبًا من القهوة ومعها حقيبتها مسرعة إلى باب الشقة ، وأمها تناديها لتتريث فردت:

معذرة أمي ... أنا في عجلة من أمري.

ثم خرجت وأثناء هبوط المصعد بها أجرت اتصالًا بيوسف تسأله عما سمعت من تلك الحادثة ، فأجابها جالسًا في مكتبه:

نعم .. في الصباح الباكر من هذا اليوم سقط رجل من أعلى المبنى في حي الزمالك ، وقد أحيلت الجثة إلى الطب الشرعي.

وأثناء حديثه وصله تقرير نتيجة المعمل الجنائي ، فنظر إليها ثم سكت لحظة وسالي تسأله:

ما النتيجة ؟؟ أخبرني

رد عليها و لا يزال ينظر إلى التقرير:

نفس النتيجة ، لا أثر لأي شيء ... لا أثر.

في هذه اللحظة راود سالي شعور غريب تجاه نتائج الطب الشرعي بشأن تلك الحوادث حيث يشوبها غموض مريب ، فقالت ليوسف:

سأذهب الآن إلى الجريدة.

رد عليها في حزم:

حسنًا ، ولكن لا أريد أي نشر لما يتعلق بنتائج الطب الشرعي

ردت سالي:

بالطبع ، أعلم ذلك فلا تقلق بهذا الشأن.

***

المطاردة والسيارة السوداء

سارت سالي على قدميها مسرعة في طريقها إلى جريدة الخبر الناطق ، فإذا بها تُدفَع فجأة فتقع أرضًا على ذراعها اليسرى ، فحاولت أن تنهض وهي تشعر بألم بسيط ، فإذا بآخر يدفعها بقوة فتُطرَح على الأرض مرة أخرى على ذراعها اليسرى ، فأصبح الألم أشد، لكنها ظلت كما هي حتى لا تُدفع في المرة الثالثة ، وبينما هي على هذه الحال رأت شخصًا ثالثًا يركض ، فنهضت ممسكة بذراعها اليسرى فإذا بها تشاهد الرجلين يرتديان ثيابًا سوداء يسرعان ليلحقا برجل آخر مغاير لهما ذي شعر مجعد حتى أمسكا به في قوة ، ثم أخذا يمشيان به بين الناس وكأن شيئًا لم يحدث.

راود سالي شكوك وفضول تجاه هؤلاء الرجال ، فغيرتْ طريقها و راقبتهم عن بُعد حتى وصلوا إلى نهاية شارع الجمهورية ؛ ليركبوا سيارة سوداء اللون حديثة الطراز (جيب) في انتظارهم ، فما لبثت أن انطلقت هذه السيارة في سرعة بطيئة بعض الشيء لازدحام الطريق ، فارتجلت سالي بخطوات سريعة في

حذر وراء تلك السيارة ، وظلت على هذه الحال حتى انتهى بها المطاف إلى شارع (القبيسي) لكن السيارة ظلت في طريقها إلى أن وصلت إلى شارع (يوسف وهبى) ، فوجدت سالي نفسها خلف المستشفى القبطي حيث تجد مبنى ضخمًا ذا طوابق عديدة ، واجهاته زجاجية عاكسة للضوء ، ذا باب أسود ، فوقفت السيارة في الشارع الجانبي للمبنى ، وفي تلك اللحظة ابتعدت سالي بضع خطوات ثم بدأت تلتقط صورًا للمبنى من هاتفها المحمول ، ثم انتظرت من باب الفضول وقد ساقها حدسها إلى أن لهؤلاء الرجال علاقة بتلك الحوادث ، فتمسك بأول خيط في هذه القضية ، وبعد قليـل رأت الرجل ذا الشعـر المجعد الذي لا يبدو عليه أنه من أتباع أصحاب الزي الأسود ، خارجًا من المبنى وحده ، فمشى في طريقه فأخذتْ سالي تتبعه عن بعد حتى وصل إلى نهاية الشارع ثم انعطف يسارًا حيث شارع (رمسيس) وظل يمشي حتى وصل إلى منطقة (السبتية) محل سكنه ، وهنا غلب على سالي التعب والإرهاق ، فبحثت عيناها عن مكان تريح فيه قدميها حتى وجدت محلًا للأحذية فدخلت إليه ثم جلست على مقعد بحجة الشراء لتريح قدميها ، وهنا بدأت تدوِّن على هاتفها المحمول عنوان المبنى الضخم وصفاته وبيت ذي الشعر المجعد ، ثم استقلت سيارة أجرة ذاهبة إلى الجريدة.

شكوك واهية

وصـلت سالي إلى عمـلها و قد عـلم حامـد رئيـس الجريدة بوصولها فاستدعاها ، وبعد دخولها إلى مكتبه شرع في توبيخها:

لِمَ تأخرتِ؟

أنت لم تعتادي التأخير..

فردت سالي تتألم من ذراعها كثيرًا:

أعتذر يا أستاذ حامد ، أعتذر عن التأخير ولكن .....

فسكتت فجأة تحدّث نفسها:

لا لا .... لا تبوحي بشيء فهناك ما تخفيه زوجته عندما تنَكّرت و هربت مني ، أرى سرًا وراء ارتباك حامد عندما حدّثه يوسف عن الحادثة .. لا لا ، لن أبوح..

نظر حامد إلى وجه سالي متعجبًـا من سكـوتها المفاجئ وشرودها ، فقال لها:

اجلسي يا سالي .. إذا سمحت

جلست سالي ممسكة بذراعها اليسرى وعلى وجهها علامات الانزعاج ، فسألها في اهتمام:

هل أنت بخير؟

ردت :

نعم بخير ، لكن ذراعي تؤلمني كثيرًا..

فسألها:

وما العلة؟

ردت متألمة:

عندما خرجتُ صباحًا من منزلي في طريقي إلى هنا ، أوقعتني مطاردة رجلين لرجل آخر على الأرض مرتين فارتطمت ذراعي اليسرى على حافة الرصيف....

فسألها حامد في اهتمام:

وماذا حدث بعد ذلك؟

ردت:

رأيت رجلين بضخامة الثيران يرتديان ثيابًا سوداء يطاردان رجلًا للإمساك به ، هذا ما حدث...

سكتت سالي عن بقية ما حدث ، فاتصل حامد بالطبيب ، وأخذ منه موعدًا على أن يكون بعد قليل ، فوجهت سالي إليه سؤالًا:

لماذا اتصلت بالطبيب؟

فقام حامد من مكانه واتجه نحو الباب قائلًا:

لا بد أن تذهبي إلى الطبيب ليفحص ذراعك فربما اعتراه كسر.

شكرته سالي في استحياء لكنه ردّ في حزم:

هيا بنا ..

خرج حامد بصحبة سالي إلى طبيب يعرفه فدخلا إليه ، وبعد الفحص تبين إصابة ذراعها بشرخ فقام الطبيب بعمل ما يلزم ، ثم التفت إلى حامد قائلًا:

حسنًا فعلت أستاذ حامد.

فرد حامد متعجبًا لأمرها:

نعم .. لكنها لم تأبَهْ بالذهاب إلى طبيب.

فالتفت الطبيب إلى سالي قائلًا:

لا يا سيدتي هذا خطأ ، وقوعك بتلك الطريقة لا يستدعي التردد في فحص ذراعك ، وحمدًا لله على سلامتك.

ردت سالي بعينيها الباسمتين:

أشكرك....

ثم وجهت عينيها إلى حامد تستكمل حديثها:

و أشكر أستاذي على اهتمامه ، اعتقدتُ أن ما أصابني مجرد كدمات ، فلم أشعر بهذا الألم الشديد إلا بعدما توجهت إلى الجريدة.

فرد الطبيب متعجبًا:

إلى هذا الحد كان فكرك مشغولًا عما أصابك؟!

سكتت سالي هنيهة وقد أحست أنها في مأزق ثم قالت:

انشغلتُ فيما عليّ من مهام بشأن الجريدة.

التفت الطبيب إلى حامد مُبديًا إعجابه قائلًا:

أراك محظوظًا بصحفية مُجدة.

وفي تلك اللحظة رد حامد ولا يزال متعجبًا:

نعم نعم .. بالطبع ..

غلب على حامد ظنون تجاه ما صرحت به سالي من سبب وقوعها خاصة بعد ما تفوهت به أثناء حديثها مع الطبيب ، فانتابـه القلق والحيرة ، وقد شك في أن ذلك كله وراءه ما يخشى منه.

صمت وراؤه ظنون

خرج حامد بصحبة سالي من عيادة الطبيب منطلقًا بسيارته ، وفي الطريق ساد الصمت بينهما حيث دار في رأس سالي كثير من الأفكار والشكوك ، تريد التأكد من صحة حدسها تجاه ما اعترضتها من مطاردات ، متوجهة ببصرها إلى نافذة السيارة ، فانتهى بها التفكير إلى تبليغ الرائد يوسف بما حدث.

أما حامد فقد أخذ ينظر إليها لحظة ثم أدار بعينيه إلى الطريق أمامه ، وفي خاطره كثير من التساؤلات حول ما يحدث حوله من زيارة يوسف له في توقيت على غير المعتاد بعد رجوع زوجته إلى المنزل مباشرة ، وتأخر سالي عن دوامها بالجريدة ، فحدّث نفسه:

لمَ عللتْ سالي تأخرَها بما حدث لها من وقوعها على ذراعها وألمها؟! ولو كان ما ذكرَتْه صحيحًا فكان من الأولى أن ترجع إلى بيتها أو تذهب إلى الطبيب مباشرة!!

ليس من المنطقي أن يكون سبب عدم مبالاتها بألمها هو ما وراؤها من مهام تتعلق بالجريدة ! لا بد من سبب آخر مريب وراء ذلك.

ثم استطرد حديثه لنفسه منزعجًا:

لا لا .. لا يمكن أن تكون قد عرفتْ بالورطة التي وقعتُ فيها.

مكالمة في منتصف الليل

عادت سالي إلى بيتها في ساعة متأخرة ، ثم اتجهت إلى غرفتها ولمْ تتردد في مهاتفة يوسف ، فأخرجت هاتفها من حقيبتها تُجري اتصالاً به قائلة:

مرحبًا يوسف ... أعتذر عن الاتصال في وقت متأخرة ..

أعتقد أن لدي معلومات قد تحتاجها في كشف لغز تلك الحوادث.

كان يوسف جالسًا في مكتبه ، لكنه اعتدل في جلسته سائلًا بصوت متلهف:

أخبريني ما عندك.

أجابته وقد وجهت بصرها إلى النافذة ، مبتسمة لما حصلت عليه من أخبار لتخبره بها:

في طريقي إلى الجريدة رأيت رجلين يرتديان ثيابًا سوداء يطاردان رجلًا مختلفًا ثيابه حتى أمسكا به في قوة ، ثم مشيا معه بين الناس وكأن شيئًا لم يحدث ، فراقبتهم إلى أن استقلوا سيارة (جيب) سوداء نوافذها عاكسة للضوء ، فتتبعتُها حتى وصلتْ إلى مبنى ضخم ذي طوابق زجاجية عاكسة للضوء ، فوقفتْ بجانبه .....

وفجأة أثناء تحدثها شعرت بالألم في ذراعها ، وقد لفظ لسانها بكلمة (آه) عندما تحركت فجأة لتجلس ، فسألها يوسف حينئذٍ:

ماذا أصابك؟؟ هل أنت متعبة؟؟

فأجابته و الألم بدأ يزول بعض الشيء:

شيء بسيط .... أصيبت ذراعي اليسرى بشرخ عند مطاردة الرجلين لثالثهما مما جعلني أنتبه إليهما ، فراودَني الشك في أمرهما .

فرد يوسف بصوت يغلبه الحنان والقلق عليها:

حمدًا لله على سلامتك يا سالي ، انتبهي فسلامتك تهمُّني...

سكتت سالي لحظة ، وقد بدا على وجهها بعضٌ من ملامح الخجل تخالطه سعادة ، ثم استطرد يوسف حديثه في اهتمام:

أكملي يا سالي ، بعدما وقفت السيارة بجانب المبنى ، ماذا حدث ؟

فأجابته:

رأيت هؤلاء يدخلون المبنى ، فانتظرتُ دقائق ملتقطة بعض الصور للمبنى ، فقد غلبني حدسي الصحفي أن لهؤلاء علاقة بالحوادث السابقة ، وفجأة رأيت الرجل المطارَد يخرج من المبنى وحده ، فراقبته إلى أن وجدته يدخل مبنى سكنيًا أعتقد أنه من ساكنيه ومعي صورة له.

بدأ يوسف يتيقن بظهور أول خيط في هذه القضية ، فقال بصوت حازم:

إذًا ... هذا الرجل سيدلّنا على مفتاح السر ، ولا بد من مقابلته بأية طريقة ، ولكن هل عرف حامد بما حدث؟

ردت سالي:

لا ... ليس كل ماحدث ، فقط أخبرته بما حدث لي وما رأيته من تلك المطاردة ، لكن ما حدث بعد ذلك لا .. لم أخبره به.

فسألها يوسف ، و هو لايزال في مكتبه:

لماذا؟

ردت في ثقة:

لأني أوقن أن حامدًا يخشى شيئًا يُريبُني ، فهو يخفي سرًا متعلقًا بتلك الحوادث التي تقع الواحدة تلو الأخرى على حد علمي ، ولذلك أردتُ أن أخبرك أولًا لأسمع رأيك.

فكر يوسف قليلًا ثم قال:

حامد صديقي يا سالي منذ سنوات طويلة ، و أعلم أنه يُخفي أسرارًا لا سرًا فأنا أعرفه ، وأؤكد لك أنه قد وقع في مأزق ، ولا يستطيع البوح بما لديه ، ولا بد أن أعرف هذا منه.

وأثناء حديثه دخل عليه ضابط يعمل معه في القضية ، فأراد أن يطلب مشورته في أمر يخصه ، فأشار إليه بيده ليجلس ثم استطرد كلامه:

ما أريده الآن الرجل الذي راقبتِه ، أرسلي إليّ على الهاتف المحمول صورته و عنوان سكنه ، أريد نزع سر تلك المطاردة منه.

***

التكليف بالمهمة

أنهى يوسف المكالمة وقد وصلته الرسالة ، فكلف الضابطَ حسام بالذهاب إلى عنوان الرجل و التحري عنه في أسرع وقت ، فعدل حسام عن التحدث فيما يخصه ، ولم يتردد في تلبية أمر يوسف ، بل أخذ العنوان و الصور قائلًا:

تحت أمرك .. إن شاء الله في أسرع وقت..

ثم انصرف ، أما يوسف فظل يفكر بعض الوقت في ملابسات القضية.

وصل الضابطُ حسام إلى (السبتية) ، فوقف يتأمل في الشارع ليستقر على مكان يراقب من خلاله دون إثارة الشبهات ، فوجد مقهى بمحاذاة بيت الرجل المطلوب ، فاختار مقعدًا مناسبًا لمراقبة الناس عند الدخول والخروج من ذاك البيت ، فجلس طالبًا فنجانًا من القهوة منتظرًا لحظاتٍ ، فمرت دقائق وقد ارتشف القهوة ، ثم ظل منتظرًا حتى مضت ساعة ، فإذا به يرى صاحب الصورة ومعه رجل آخر يرتدي الزي الأسود يتجهان نحوه دون أن ينطق كلاهما بكلمة ، فجلسا وراءه و هو ينتظر أن يدور حوار بينهما ، فإذا يصل إلى مسامعه صوت غليظ لأحدهما يقول في حزم:

ها .. أعطني ردًا حاسمًا.

وجه إبراهيم إليه نظرة تحمل شيئًا من الغضب ممزوجًا بالتردد والاضطراب ، وأصابع يديه تلامس بعضها البعض ثم

قال:

نـ ... نعم ... نعم.....

فسكت لحظة ، فصوب الرجل ذو الرداء الأسود نظره إلى عيني إبراهيم ، وقد انعقدت حاجباه و راحة يده على الطاولة يضرب بسبابته على سطح تلك الطاولة بصورة مستمرة ، فاستكمل إبراهيم حديثه:

حسنًا .. لكم ما تريدون ، لكني سأقوم بهذا العمل هذه المرة فقط، و بعدها دعوني وشأني.

لكن ذا الرداء الأسود رد على إبراهيم بنبرة مختلفة بعض الشيء ، وعلى شفتيه ابتسامة زائفة:

لا تملي علينا شروطًا دكتور إبراهيم .. أنت تعلم ما حدث للدكتور ماهر ، وأظن أنك لا تحتاج إلى أن أذكّرك بذلك.

وأثناء ذلك أخذ الضابط حسام يتصفح في جريدة متنصتًا لما بينهما من حديث ، وتعلو وجهه علامات استفهام ، وسؤال يجول في خاطره:

ما طبيعة ذاك العمل الذي يشكل عبئًا على صاحب الصورة؟!

ترك صاحب الزي الأسود إبراهيم منطلقًا خارج المقهى بخطوات سريعة ثابتة ، وفي تلك اللحظة أشار حسام بيده لنادل المقهى يطلب منه فنجانًا من الشاي ، وقد فَهم ما وراء هذا الحوار ، أما إبراهيم فظلّ لحظات في مكانه ثم خرج من المقهى يجر رجليه ، وحسام يراقبه بنظراته حتى وجده يتجه إلى بيته ، فقام تاركًا فنجان الشاي يتتبع إبراهيم عن بُعد حتى دخل بيته واستـقل المصعد ، فانتـظر حسام أمام المصعد يراقب أرقـام

الطوابق حتى استطاع تحديد رقم الطابق الذي يسكن فيه إبراهيم.

***

رجل في مأزق

وصلت تفاصيل التحريات ونتائجها إلى الرائد يوسف ، فعزم على زيارة إبراهيم ، و أمام شقة هذا الرجل طرق الباب شخصٌ يرتدي زيًا كلاسيكيًا و قبعة ونظارة سوداء ، فنظر إبراهيم من عين الباب ، ثم فتح في حذر جاهلًا هوية طارق الباب، فوجد رجلًا ينزع نظارته قائلًا:

هلا سمحت لي بالدخول دكتور إبراهيم؟

بدت على وجه إبراهيم ملامح الاستغراب والانزعاج ، وقد انعقدت حاجباه ، فتلعثم في رده ما بين خوف وغضب:

نعم .. لا .. لا .. نعم .. من أنت؟ !

هل تعرفني ؟!

فرد يوسف في هدوء خافضًا صوته:

نعم ، وأعرف الدكتور ماهر رحمه الله

فازداد خوف إبراهيم وقلقه ، وقد شدَّ يد يوسف إلى الداخل مغلقًا الباب في سرعة خاطفة ، فوقف يوسف لحظة وقد وقعت عيناه على صورة موضوعة على منضدة جانبية في الممر لإبراهيم وماهر معًا ، فأدخله إبراهيم في سرعة إلى غرفة الاستقبال ثم أخذ إبراهيم منديلًا من علبة على طاولة تتوسط

الغرفة إلى جانب إبريق ماء وكوب ، فمسح وجهه من شدة التعرق قائلًا:

ماذا تعرف أيضًا؟

من أنت؟؟ .... تفضل بالجلوس.

فجلس يوسف ثم جلس إبراهيم ناحيته مستكملًا حديثه:

أخفض صوتك ، وقل لي ماذا تريد؟

نظر يوسف إلى إبراهيم في شفقة ، فوضع يده على كتفه يطمئنه قائلًا:

لا تقلق دكتور إبراهيم ، أردت مساعدتك حتى لا تلحق بماهر أيضًا.

فقال إبراهيم مضطربًا:

تساعدني !! مـ .. ماذا تريد مني؟؟

من أنت ؟؟

فرد عليه:

الرائد يوسف ، و أعلم بتورطك مع هؤلاء مثلما تورط ماهر .

هبّ إبراهيم من مكانه فزعًا يقول:

من؟

لا أعلم عن من تتحدث ، مَن هؤلاء؟

قام يوسف محركًا ساعة يده كعادته قائلًا:

هؤلاء الرجال أصحاب الزي الأسود ، الذين هددوك إن لم تستجب لمطالبهم.

بدت على إبراهيم ملامح الذهول ، فظل جالسًا خافضًا رأسه مشبكًا أصابعه في صمت ، و يوسف ينظر إليه منتظرًا منه أن

يبوح بما يحمله على عاتقه من هَمّ يجر رجله إليه مضطرًا ، حتى قرر إبراهيم أن يلقي من على عاتقه تلك الصخرة المعترضة طريق الأمان والحياة ، فقال و هو لا يزال على هيئته:

كنت أنا وماهر صديقين ، لكنه كان يعمل في دار البحوث العلمية الخاصة بالحرب الكيميائية ضمن مجموعة متميزة من العلماء والباحثين ، حيث دراسة الأبحاث و إنتاج مختلف الأدوية و اللقاحات و المواد الكيميائية ، وفي يوم ما قابلتُ ماهرًا أمام مكان عمله ، لكني لاحظت وجهه متغيرًا لدرجة لم أعهدها عليه من قبل ، فسألته من باب الاطمئنان عليه:

ما بالك يا صديقي؟! أراك مهمومًا .. أ هناك خطب ما؟؟

في تلك اللحظة جلس يوسف وقد رفع إبراهيم رأسه يوجه عينيه إليه مستكملًا حديثه:

وجّه ماهر عينيه إلى الأسفل باتجاه اليسار ، فاستشعرت بوجود خطب ما يحاول إخفاءه ، فكررت سؤالي فإذا به يقول لي بصوت خافت:

دعنا نتحدث هاتفيًا ... لا تلفت إلينا الأنظار.

وبعدما افترقنا عدتُ إلى منزلي ، ثم وجدت اتصالًا من ماهر ، وعندما استمعت إليه رأيت نفسي كأني أشاهد فيلمَ رعبٍ وقد صرت طرفًا فيه بعدما باح لي بتلك الأسرار المريبة.

حدّق يوسف بعينيه إلى وجه إبراهيم ، وقد أيقن في تلك اللحظة أنه يضع يديه على السر المخيف وراء تلك الأحداث والحوادث فقال في اهتمام:

أكمل يا دكتور إبراهيم .. أكمل ... لا تُخفِ عني أيـة صغيرة أوكبيرة ، واطمئن فأنا أحقق في حوادث الانتحار التي وقعت سابقًا آملًا ألا يقع المزيد منها.

كانت كلمات الرائد يوسف دافعًا لإبراهيم لجعله يثق به ، فقرر كشف الستار الذي كان مسدولًا على الجرائم التي سلبت من البشرية حقها في الحياة ، فاعتدل جالسًا تجاه يوسف و قال متحفزًا على الرغم من المخاوف التي لا تزال مترسبـة في داخله:

أنت تعلم طبيعة عمل مركز البحوث العلمية الذي يعمل فيه ماهر ، ففي هذا المركز يتم اختراع واكتشاف ما يطرأ على الباحثين من جديد ، وإجراء تجارب عدة للقاح أو دواء على الفئران أو القردة... ،

فرد يوسف:

بالطبع....

****

الصفقة المحرمة

استكمل إبراهيم حديثه:

لكن ما لا تعرفه و حسب ما أباح ماهر به أن تلك المنظمة عقدت صفقة سرية مع مدير مركز البحوث في مقابل تمويل المركز بما يتطلبه من معدات و أجهزة تكنولوجية حديثة ، صفقة هدفها تلبية مطامع المنظمة غير الشرعية و المنافية تمامًا للأخلاق و المبادئ ، ضحيتها الإنسان لفرض هيمنتها على البشرية أجمع ، إنها تُجري تجارب بها المدمرة على البشر الضعفاء المساكين الذين يبيعون أنفسهم في سبيل أموال يتقاضونها من المفترض أن تكفل أسرهم ، أي يمكنك القول إننا سنصبح بشرَ تجارب بدلًا من فئران تجارب.

في تلك اللحظة حلت الصاعقة على يوسف ، وعلت وجهه ملامح الاستنكار لما سمعه قائلًا بصوت تعتريه المفاجأة:

ماذا قلت؟! ما نوع تلك التجارب ؟

رد إبراهيم بعد تنهيدة قصيرة:

المنظمة السوداء تدير تجارب متعددة متعلقة بالأسلحة الكيميائية عامة و البيولوجية خاصة ، وصفقتها مع مركز البحوث تقوم على إجراء تجربة بشأن مدى تأثير غازات الأعصاب السارين على إمكانية وصول الإشارات العصبية إلى المخ ، لكن ضحيتها الإنسان الفقير الذي لا حول له ولا قوة ، حيث يحبسونه في غرفة مجهزة مغلقة بإحكام ، فيطلقون تلك

الغازات فيها ، أما حياته وموته فليست في الحسبان ، بل المهم هو التوصل إلى النتائج التي يريدونها لأغراض وأبعاد سياسية واقتصادية لحسابهم الشخصي..

قال يوسف:

معلوماتي دكتور إبراهيم أن مثل هذه الغازات السامة لكي يستخدمها أحدهم أو يجري عليها تجارب ، تحتاج إلى أن يقي نفسه جيدًا.

رد إبراهيم:

نعم ، كلامك صحيح ، عندما يجري هؤلاء مثل هذه التجارب على البشر ، يقف أحدهم خلف باب تلك الغرفة المجهزة ويطلق هذه الغازات من ثقب مصنوع في الباب مرتديًا ملابس واقية وقفازات ، فهم يأخذون الاحتياطات الوقائية لكنهم يسعون إلى تعزيز سبل الوقاية ، وفي يوم ما أجروا مقابلة مع ماهر حينما علموا بذكائه ومهارته في مثل هذه الأنواع من الغازات و الوقاية منها ، و ذلك بمساعدة مدير المركز الذي رشحه لهم للعمل معهم على الرغم من اعتراض ماهر على ذلك في أول مقابلة بينهم ، لكنهم ظلوا وراءه حتى أجبروه على تنفيذ طلبهم بالترهيب والتهديد وخطفه أيامًا مما اضطر إلى الخضوع والاستسلام لسلطة رغباتهم السادية.

و بالفعل تم إنتاج أقنعة بها مرشح يتكون من حبيبات مسحوق الفحم النباتي النشط ، و هذا المسحوق له قدرة على امتصاص تلك الغازات من الهواء المستنشق ، لكنه في النهاية له تاريخ صلاحية.

وبعد ذلك انشغلتُ أيامًا ثم علمتُ بغياب ماهر عن المركز أسبوعين لسوء حالته النفسية ، حتى إنه قدم استقالته للمدير فقوبلتْ بالرفض وعندئذ انقطع عن العمل ، فأجريت اتصالًا هاتفيًا به لزيارته ، و بالفعل رد علي لكن صوته كان يبدو وكأنه منزعج من أمر ما ، ولم يلبث إلا أن أنهى المكالمة ، فداهمني قلق شديد تجاهه ، فتوجهت إليه مباشرة فإذا بي أجد جثته ملقاة على الأرض وقد فارق الحياة ولم أستطع إنقاذه ، فبدا للجميع أنه انتحر.

فرد عليه يوسف متحفزًا:

أخبرني هنا ، هل تُوفي ماهر منتحرًا أو بفعل فاعل؟

****

سر اللغز

سكت إبراهيم هنيهة واضعًا يديه على وجهه ، ثم أمسك بالمنديل يمسح وجهه من التعرق ، فأعطاه يوسف كوبًا من الماء ، فارتشف منه فهدأ بعض الشيء وقال:

لا ، لم يكن ذلك انتحارًا بل حادثة مُدبرة.

فقال يوسف:

لم يخب ظني ، هناك سر وراء تلك الحوادث.

رد إبراهيم:

جميع الحوادث التي وقعت بهذه الطريقة مُدبرة ، و تكتم أسرارًا ، ومنها سر ماهر الذي عرفته أنت الآن الذي انتهى إلى أن صاحب المنظمة أرسل إليه أفرادًا ماهرين مدرَّبين لا يخطئون حيث دخلوا شقته بهدوء و قائدهم (نُمير العقرب) وهو باحث في مركز البحوث ، خائن ، وانتهازي ، لكن الكثير منا نحن العلماءَو الباحثين شرفاء مخلصون ، البعض في المركز يتعامل معه بحذر ، ومنّا من لم يتعامل معه على الإطلاق ، هذا المخترع بارع في اختراع كل ما يتعلق بالشر ، هذا العقرب اخترع جهازًا إشعاعيًا مريبًا هدفه خفض مستوى مادة السيروتونين المعروفة بهرمون السعادة ، هذه المادة مسئولة عن نقل الإشارات العصبية من منطقة إلى أخرى في الدماغ ، وبالتالي فإن انخفاض هذا الهرمون بدرجة كبيرة يؤدي إلى الاكتئاب الحاد و وإيذاء النفس مما يجعل الضحية تقدم على الانتحار بلا وعي .

هذا الجهاز الإشعاعي استخدمه هؤلاء مع ماهر ، حيث صوب أحدهم هذا الجهاز إلى جبهة وجهه مباشرة في ثوان ، ومن ثَم فروا خارج الشقة في هدوء وسرعة وجيزة.

في تلك اللحظة شرد فكر يوسف إلى نتائج الطب الشرعي التي تظهر سلبية من أي آثار دالة على ارتكاب جريمة فقال:

إذًا هذا الإشعاع هو السر وراء سلبية نتائج الطب الشرعي.

رد إبراهيم:

نعم صحيح ، الطب الشرعي في تشريحه للجثث ينظر في الحالات المشكوك في أمرها إن كانت وفاة طبيعية أم جريمة أم حادثة من خلال آثار ضرب أو طعن أو سم .....

فالمعطيات في هذا المجال ما زالت تفتقر إلى التقنيات الحديثة ، والتكنولوجيا المتطورة في تحديد أدق أدق تفاصيل الجثث.

فهم يوسف سر اللغز الذي ظل يبحث عنه ، لكنه لم يقم من مجلسه قبل أن يعرف هوية صاحب تلك المنظمة ، فسأل إبراهيم:

دكتور إبراهيم... من هو صاحب المنظمة؟

***

الهوية المجهولة

سكت إبراهيم لحظة وعلى وجهه ملامح الخوف ولسانه يتلعثم بقوله:

أ أ...لا .. لا لا أعرف اسمه.

فقام يوسف من مكانه ثم اقترب منه قائلًا:

لا تخف ، لن يعرف أحد غيري الآن .

هل هو من الشخصيات البارزة ؟

فأجابه:

كل ما أعرفه أنه أحد أعضاء مجلس النواب ، ولكن مَن هو تحديدًا لا أدري.

فكر يوسف لحظات في صمت ، ثم أنهى زيارته خارجًا من شقة إبراهيم وقد أعطاه رقم هاتفه للتواصل ، وظل سائرًا في الطريق وقد طال به التفكير في أعضاء مجلس النواب ، وفجأة تذكّر أحدهم وهو النائب نوح الشربيني ، فقد قابله عدة مرات في ظروف مختلفة ، فعزم على الاتصال به هاتفيًا ، لكن اتصالًا جاءه من رقم مجهول ، فرد عليه فإذا إبراهيم يحدثه قائلًا:

الرائد يوسف ، أردت أن أفصح لك عن شيء تبحث عنه.

فرد يوسف في سرعة:

ما هو ؟ أخبرني..

قال إبراهيم:

أسماء بعض النواب قد يكون أحدهم صاحب المنظمة ... لكن رجاء لا تسألني كيف عرفت.

فقال يوسف:

حسنًا ، أخبرني الآن بأسمائهم ولنا لقاء آخر قريب ، ولا تقلق مما دار بيننا ولن أؤذيك أو أتهمك بشيء.

فقال إبراهيم بصوت يشوبه اضطراب:

النائب داغر بدران

النائب ضرغام مالك

والنائب نوح الشربيني

سمع يوسف آخر اسم ذكره إبراهيم ، فإذا بالهاتف المحمول يقع أرضًا من أثر الصدمة ، فالتقطه مباشرة سامعًا صوت إبراهيم يقول:

هل تسمعني ؟

فرد عليه بصوت مصدوم:

نعم ، نعم ، حسنًا حسنًا دكتور إبراهيم ... أراك قريبًا.

عاد يوسف إلى منزله في ذهول يتذكر نوح الشربيني الذي طالما قابله مرارًا ، و لم يجد منه إلا خيرًا ، فلِمَ ذكره إبراهيم؟ وكيف عرف؟! ولماذا لم يفصح عن ذلك من البداية؟!

هواجس وأفكار تجول في خاطر يوسف ، لكنه تذَكّر طبيعة عمل ذاك النائب حيث يعمل تقني أشعة ، و له باع طويل في علم التشريح وتطوير تقنية التصوير الإشعاعي ، نعم ... لِمَ لا ؟

نوح الشربيني من خلال حواراته متمكن في مجال التقنيات الإشعاعية وعلم التشريح.

وأخيرًا انتهى به تفكيره إلى مهاتفة حسام قائلًا:

مرحبًا حسام ... هل أيقظتك من النوم؟؟

رد حسام والنعاس يداعب عينيه:

مرحبًا سيد يوسف .. لِمَ اتصلت بي في هذا الوقت المتأخر؟ خيرًا ..

قال يوسف:

اسمعني ... أريدك أن تجمع معلومات عن النائب داغر بدران والنائب ضرغام مالك ، اكتب عندك.

سمع حسام بهذين الاسمين ففر النعاس بعيدًا عن عينه ، وهو يردد:

النائب داغر بدران ، و ضرغام مالك!

أجمع عنهما معلومات!!

فرد يوسف في حزم:

نعم ، ولا تتأخر في إنجاز هذا العمل ، فهو محور القضية ... أ تسمعني؟

رد حسام:

نعم نعم .... علم سيدي... ولكن أريد فقط أن أخبرك بشيء ..

فقال يوسف:

أخبرني ..

رد حسام:

النائب ضرغام مالك .. سمعته أكثر من مرة على التلفاز أثناء اجتماع مجلس النواب ، أو عبر بعض البرامج السياسية

و العلمية وغيرها ، ودائمًا أجد آراءه مقنعة ، و يتجه معظم الناس إلى استشارته.

فقال يوسف:

لم أتهم أحدًا من النواب ، ولكن قد يُخطئ أحدُهم في حق المجتمع مثلهم مثل أي صاحب منصب أو موظف ، فنحن لا نستبعد أحدًا عند التحقيق في قضية ما حتى تتضح الصورة ، هذا هو عملنا أيها الضابط ..

و بالنسبة لضرغام فهذه الآراء المقنعة ، والأسلوب المنمق في حديثه تسمعه في التلفاز ، و لكن هل لديك أية معلومة أخرى عنه فيما يتعلق بحياته ، مؤهلاته ، وظيفته ؟

رد حسام وقد خفض رأسه قليلًا:

لا ، لا للأسف.

فقال يوسف في حزم:

إذن فلتجمع لي معلومات عن النائبين ..

مهلًا .. أريد أيضًا معلومات عن النائب نوح الشربيني ، منتظر منك نتائج التحريات في أسرع وقت.

رد حسام:

علم يا سيدي .

***

خوف وغضب

وفي جريدة الخبر الناطق ، كانت سالي جالسة تفكر فيما حدث تحاول أن تربط بين خيوط القضية ، وفي يدها قلم ترسم به على ورقة تخط خطوطًا أفقية ، و رأسها متكئ على راحة يدها الأخرى ، ثم قامت فجأة بهاتفها فدخلت على رئيس الجريدة قائلة بوجه مبتسم:

صباح الخير أستاذ حامد.

فنظر حامد إليها ثم سألها:

أ عندك أخبار جديدة؟

أجابته بصوت يخالطه الحماسة مع توخي الحذر:

نعم أستاذي ..

أعتقد أني على وشك التوصل إلى سر قضيــة حوادث الانتحـار.

تغير لون وجه حامد فجأة لترتسم على ملامحه ابتسامة زائفة لمحاولة طمس القلق والخوف على قلبه المجروح ، فسألها:

كيف ؟ اشرحي ما حدث.

فأجابت وقد انتبهت إلى التغيير الذي انتابه على ملامح وجهه وصوته:

تتبعتُ الرجلين اللذين كانا يرتديان الزي الأسود بعد مطاردتهما لآخر ، حتى وصلتُ إلى مبنى ضخم صامت موصد النوافذ والأبواب، فانتابني شعور سيئ تجاهه حيث رأيت هؤلاء يدخلونه مسرعين ، فالتقطت صورًا له...

ففتحتْ هاتفها تُريه تلك الصور ، فمد حامد يده مرتجفة بعض الشيء ، فأمسك بالهاتف ناظرًا إلى الصور ، فإذا به يضطرب وعلى وجهه علامات الارتباك متأملًا لحظات ، فلاحظت سالي ما بدا عليه من الارتباك حتى أصبحت على يقين من العلاقة بينه وبين هؤلاء وحوادث الانتحار ، فسألته:

هل هناك خطب ما أستاذ حامد؟

فرد عليها بصوت يعتريه شيء من الغضب:

اتركيني الآن ....

فطلبتْ منه هاتفها ، لكنـه ظل شارد الذهن مشغـول الفكـر ، و هي تلحُّ على طلبها ، و عيناه وامضتان فيما بين يديه، فارتفع صوتها قليلًا مكررة طلبها قائلة:

أريد هاتفي يا أستاذ حامد..

فانتبه حينئذ وأعطاها هاتفها ، أما هي فقد خرجت من مكتبه متضايقة بعض الشيء من رد فعله.

***

اشتباه

في شارع من شوارع المهندسين حيث يقطن النائب نوح الشربيني ، وفي الصباح اجتمع أناس حول رجل مُلقى على الأرض أمام منزل النائب ، وفي نفس الوقت خرج هذا النائب من منزله ليجد هذا الجمع المحيط بذلك الرجل ، فناداه أحدهم ربما يساعده ، فنظر نوح إلى الرجل قائلًا لمن حوله:

متى وقع هذا الرجل؟!

فأجابه أحدهم:

منذ قليل ، فقد كان متجهًا نحو منزلك أيها النائب ، فهل تعرفه؟

فقال نوح متأملًا في الرجل الملقى:

لا أعتقد ... لا أتذكره .. تعلمون أن الكثير من الناس يأتيني طلبًا للمساعدة.

في تلك اللحظة وصلت سيارة الإسعاف فحملت هذا الرجل ، وذهب كلٌ منهم في طريقه ، لكن نوحًا وقف لحظة يفكر في كلام مَن أجابه يسأل نفسه:

ما الذي كان يريده مني؟؟

انطلق نوح إلى عمله في معمل من المعامل الكبيرة حيث يعمل فيه تقني أشعة ، يقوم بتطوير تقنية التصوير الإشعاعي ، جاد لا يقبل الخطأ في عمله ، يهوى التطوير والتجديد سواء في حياته أو عمله ، ولكن يعتري شخصيته تناقضٌ غير مقصود ، فهو محب الخير لمن حوله من أهله

و جيرانه ، و لكن لا مانع لديه في أن يطور تقنيات إشعاعية تضر بالبشرية في سبيل أن يجني أموالًا طائلة ، ولكن هل أتيحت لـه هذه الفرصة على طبق من ذهب؟

وفي الجانب الآخر في أحد شوارع الزمالك يقطن النائب ضرغام مالك ، يعمل أستاذًا في كلية العلوم في مجال الكيمياء النووية ، له قدرة عالية على إقناع الآخرين ، يستند على حجج علمية بحتة ، لبق في حديثه ، هادئ الطبع ، له عدة أبحاث في علم الكيمياء النووية.

أما في مصر الجديدة يقطن النائب داغر بدران ، باحث بيولوجي يمتلك مركزًا استثماريًا للأبحاث البيولوجية ، وتحت يديه طاقم من الباحثين محدود العدد يعمل تحت إشرافه ، لكنه شخص غامض ، ملتزم بعمله ، يعيش وحيدًا ، و له عالمه الخاص ، فلا يعلم أحد عنه شيئًا فيما يتعلق بحياته الشخصية بالرغم من تعامل بعض الناس له كنائب في البرلمان.

كانت تلك المعلومات نتيجة تحريات الضابط حسام التي بدأ يقرؤها الرائد يوسف ويتمعن فيها ، وقد طال جلوسه في مكتبه محاولًا ربطها بالأحداث مقتنعًا أن بطل القضية لا يخرج عن هؤلاء الثلاثة ، لكن يوسف لم ينسَ الباحث البيولوجي إبراهيم حيث كلف ضابطه باستمرار مراقبته.

تذكر يوسف سالي و حامد رئيسها في الجريدة فهاتفها قائلًا:

مرحبًا سالي ، ما الأخبار ؟

هل توصلتِ إلى شيء؟

ردت سالي:

قمتُ بما اتفقنا عليه ، وبالفعل لحامد علاقة بالقضية بل يبدو أنه متورط فيها بشكل كبير.

فقال يوسف في اهتمام:

كيف؟

ردت سالي بصوت يشوبه الضيق:

بمجرد أن وقعت عيناه على الصور فإذا به يتغير كلية وقد سيطر عليه الخوف و الاضطراب ، حتى إن الحوار بيننا انتهى بفظاظـة في حديثـه معـي ، ولم أسـترد منـه هاتـفي ببسـاطة.

قال يوسف بصوت هادئ:

أتساءل ... ما شكلك عند الغضب؟

ردت سالي متفاجئة:

ماذا ؟! أ يعجبك ما حدث معي!

ضحك يوسف قليلًا ثم قال متغزلًا:

هل غضبك مثل البشر أو شيء مختلف كالقمر؟

سكتت سالي لحظة وقد هدأت واحمـرت وجنتـاها خجـلًا ، لا تدري ماذا تقول ، فشعر يوسف بخجلها فقال:

لا تبالي بما قلته .. أريدك أن تضعي تحركات حامد تحت عينيك دون أن يشعر ، و كوني على حذر.

ردت سالي متبسمة تمازحه:

أ تظنني ضابطًا عندك تعطيني أوامر ؟

فرد يوسف بابتسامة:

يااا يا سالي .. لو كنتِ ضابطًا عندي لما تركتك تعملين بين هؤلاء الضباط الأشداء.

أبدت سالي ضحكة خجولة قائلة:

أخجلتني ...

***

تورط باحث

بعد الانتهاء من المكالمة الهاتفية ، أخذ يوسف يتنقل بين قنوات التلفاز ، فوقف عند محطة تبث اجتماعًا لمجلس النواب ، فظل أمامها يستمع ويدقق في المناقشات ، يتصيد سماع مناقشة أحد النواب الثلاثة ، و بينما هو على هذه الحال دخل عليه الضابط حسام قائلًا:

عندي لك أخبار عن الدكتور إبراهيم...

زاره أحد الرجال الذين يرتدون زيًا أسود اللون في مكان عمله مركز الأبحاث البيولوجية ، و بعد قليل خرج من عنده يخطو بخطوات مسرعة ، فانتظرتُ لحظات ثم رأيت إبراهيم يخرج من المركز ، سائرًا في نفس الاتجاه الذي سلكه صاحب الزي الأسود ، فتتبعتُه حتى وصلتُ إلى مبنى ضخم ، ذي واجهات زجاجية عاكسة للضوء ، و كأنها سوداء لم ألاحظها من قبل فدخله إبراهيم في سرعة ، لكني أكملتُ طريقي كي لا ألفت الأنظار إلى أن رأيت بائع جرائد فاشتريت منه ، وظللت واقفًا أتصفح الجريدة حتى مر على انتظاري سويعات قليلة ،

وأخيرًا خرج إبراهيم من المبنى في حالة قلق ينظر يمينًا ويسارًا قابض اليدين ، يسير بخطوات غير متزنة نسبيًا ، فتحركتُ ممسكًا الجريدة أتابع مراقبته ، وقد أقحمت نفسي بين زحـام الناس وعيناي تراقبـه حتى وجدتـه وصل إلى بيتـه.

فقال يوسف:

العلاقة بينه وبين المنظمة واضحة ، فمن المؤكد أنه متورط في تنفيذ شيء مريب ، أرجو ألا يكون توقعي في محله ... إن حدث ما أخشى منه ستحل كوارث علينا جميعًا..

رد حسام بصوت متعب:

نعم ... ندعو الله أن يرحمنا ...

فقال يوسف:

والآن ارجع إلى بيتك واسترح اليوم.

***

زيارة حاسمة

أخذ يوسف يفكر ويفكر ، وعلى وجهه علامات الإجهاد والإرهاق حتى غلبه النعاس غارقًا في النوم على أريكة مكتبه إلى صباح اليـوم التـالي.

وفي الصباح انتفض فجأة من نومه على دخول العامل الذي يعتاد على تنظيف مكتبه و إعداد فنجان القهوة له ، فقال العامل:

صباح الخير ، هل أنت بخير يا سيدي؟؟

سأعد لك قهوتك الخاصة.

أفاق يوسف قائلًا:

صباح الخير يا صادق ، نعم فقد حان وقتها .

نظر يوسف من النافذة متأملًا في تلك القضية الشائكة وأمامه تقرير عن النواب محدّثًا نفسه:

هؤلاء جميعهم محل شك ، ضرغام كيميائي نووي ، نوح تقني أشعة ، حتى داغر باحث بيولوجي طبيعة عمله موضع اتهام ، وتلك المنظـمة لا تحـصر نفسـها في الأسـلحة الكيمـيائية والإشعاعية فحسب ، بل البـيولوجيـة أيضًا على حـد قــول إبراهيم، والدليل ارتباط عمل المنظمة به ، إذًا من المحتمل أن يكون الثلاثة شركاء في تلك الجرائم.....

لكن يوسف ترك التقرير جانبًا مُرتشِفًا القهوة ، ثم خرج ذاهبًا إلى السبتية متنكرًا بمعطف ونظارة شمس .

كان إبراهيم يشاهد صورًا تجمع بينه وبين ماهر ، فسمع طرق الباب فإذا بالصور تقع على الأرض من فزعه ، فهب من مكانه ثم نظر من عين الباب ليرى رجلًا غريب الشكل ، لكنه عندما سمع صوته فتح الباب بحذر فرأى يوسف فأدخله.

جلس يوسف وقد انعقدت حاجباه ليوجه إلى إبراهيم الأسئلة المحيرة الغامضة ، لكن هذه المرة اختلفت نبرة صوته سائلًا بصوت غاضب:

ما علاقتك برجال المبنى الأسود؟

وكيف عرفت أن صاحب المبنى أحد هؤلاء النواب؟

لا تراوغني ، أجبني الآن بصفة ودية دكتور إبراهيم ، أنت باحث بيولوجي مما يعني أنك السمكة الذهبية لديهم ، هيا .. أنا أسمعك.

انتاب إبراهيم الخوف من تورطه في قضية كبيرة كهذه ، وكأنه واقع بين شقي الرحى ، فقرر أن يبوح بما يحمله من جبل على صدره ، ربما يرتاح ويحظى بمساعدة الرائد فأجاب:

سأخبرك الآن بكل شيء ، فأنا أريد طوق نجاة من غرقي في بحر عصابة سوداء ليس في قواميسها حروف كلمة رحمة أو رأفة ، أ تساعدني ؟

هدأت ملامح الغضب التي ملأت وجه يوسف منذ قليل قائلًا:

نعم دكتور إبراهيم ، لست وحدك متورطًا في هذه القضية المشئومة ، هناك أشخاص مثلك يتمونون من ينقذهم ليرسوا على بر الأمان ، هيا .. قل ما عندك.

اطمأن إبراهيم إلى الرائد فقد آن الأوان ليعود إلى الحياة الطبيعية آمنًا ، فقال:

عملي كباحث بيولوجي اكتشاف الفيروسات و أنواعها ، و إجراء تجارب عليها ، و هذه الفيروسات تتكاثر في خلايا أي كائن حي ، و قد ثبتت الدراسات أن التلاعب بالكروموثومات الجينية للفيروس يؤدي إلى إنتاج فيروسات أكثر خطورة وأشد شراسة تفتك بالبشرية ، و هي تُصنع من أمراض الكائنات الحية المختلفة.

أردت أن أشرح لك ذلك تمهيدًا للكارثة التي قد تحل علينا ، و رجال المبنى الأسود يلاحقونني منذ فترة طويلة .

فسأله يوسف مستغربًا :

لماذا يلاحقونك أنت دون غيرك؟

قام إبراهيم من مكانه ، فخطا بضع خطوات نحو النافذة ثم أجابه بعد تنهيدة قصيرة:

أستاذي هو النائب داغر بدران ، وهو ليس باحثًا فحسب بل عالمًا بيولوجيًا.

ارتسمت على وجه يوسف ملامح الدهشة والمفاجأة من تلك المعلومة التي لم ترد في خاطره ، فقال:

ماذا ؟ أستاذك!!

التفت إليه إبراهيم قائلًا:

نعم .... وإذا كنتَ تشك فيه فلا داعيَ لذلك ، صحيح شخصيته غامضة لكني أعرفه تمام المعرفة.

استغرب يوسف من رد إبراهيم فسأله في شيء من الغضب:

ولماذا ذكرتَ لي اسـمه ضمـن النـواب المشكـوك في أمـرهم؟! هل كان ذلك تخمـينًا منـك أو أنك تريد نفـي التـهمة عنه لأنك شريك معه؟!

فزع إبراهيم من اتهام يوسف له ، فاتجه نحوه في سرعة آخذًا المنديل يمسح جبهته ، ثم جلس أمامه قائلًا في اضطراب :

لا لالا .. لا يا سيدي

لا تفهمني خـطأ ، كل مـا في الأمـر أني بالفعل شككـت في أمـره عندما طاردني رجلان من رجال المنظمة حتى أمسكا بي فركبنا سيـارة سوداء فارهـة قادتنـا إلى المبنى الأسـود ، وكانت أول زيارة لي لذلك المبنى الكارثي ....

في تلك اللحظة تذكر يوسف ما أخبرته سالي به ، فما كان منه إلا أن صدقه فقال له:

حسنًا صدقتك دكتور إبراهيم ، أكمل ما سبب شكوكك؟

أجابه:

دخلنا المبنى وقد أُغلق الباب وراءنا إلكترونيًا في سرعة وجيزة، لأجد نفسي بين جدران سوداء و مصعد أمامي مباشرة منفصل عن الجدران يتوسط هذا البهو الضيق على حسب ما رأيت ، فيُفتح بابه على الرغم من أن مَن معي لم يضغط على أي زر مُرقم خاص بصعود المصعد أو نزوله ، بل فُتح بمجرد أن وقفنا أمامه ، ثم صعد بنا وأنا لا أعلم إلى أي طابق وصلنا ؛ فضخامة حـجم هـذين الرجلـين حجـبت

جدران المصعد ، وعند خروجنا منه فإذا بي أرى عددًا من الممرات الضيقة بجدران سوداء بها شرائح ضوئية حمراء ، فأتذكر هنا أني اتجهت يسارًا إلى أن دخلت آخر ممر مصفح ، وقد أذهلني كمّ الغرف المتقابلة يمينًا ويسارًا بأبواب يبدو أنها مصفحة سوداء ، لا تسمع منها صوتًا أو همسًا ، ممر مخيف ، و رجال حولي صامتون ، لكن أحدهم فتح أحد الأبواب المصفحة فإذا بي أسمع صراخًا كاد يُصيبني بالصمم لرجل ...

حينها شعر إبراهيم بخوف شديد ، وتلعثم لسانه مستكملًا:

أراه مس .. مستخدَمًا لإجراء تـ.. تجارب كيميائية إشعاعية عليه ...

أثناء ذلك وضع إبراهيم يديه المرتجفتين بالكامل على وجهه خافضًا رأسه ، فقال له يوسف:

هون على نفسك ...

فرد إبراهيم يحاول أن يلملم نفسه :

.. علمتُ نوع تلك التجارب مما سمعته من حوار دار بين الرجل الذي فتح هذا الباب المصفح و الباحث الجزار الذي كان يجرب بعض التجارب على ذاك الرجل الصارخ ، باحث تجرد من كل ما له علاقة بالإحساس و الضمير ..

كان ذلك المشهد المرعـب كابوسًـا أحـاول أن أستـيقظ منه ، وبعد ذلك استكملنا السير ، فإذا بي على وشك الوقوع حيث وجدتُ سلمًا متحركًا يصعد بي بلا أسوار على الجانبين ، فتملكني خوف و ريبة ، ما هذا المكان ؟؟ أين أنا؟؟

وبمجرد أن صعدنا فإذا بهم يدفعونني إلى غرفة معتمة فأغلقوا الباب ورائي في سرعة ، وفجأة سمعت صوتًا فإذا بي أقف و حولي جدران تتحرك باتجاهي من كل ناحية صارخًا صرخة دامية:

كفى

فتوقفت الجدران ، و جاءني شبح شخص لا أدري من أين جاء!! فإذا يظهر لي رجل غريب الأطوار ، يبدو عليه أحد المسئولين عن هذا المبنى البغيض ، فسألني بصوت أجش:

هل قررت؟؟

فأجد نفسي بعد ما رأيته أقول :

نعم ...نعم ..

قال لي:

إذًا هيا بنا .

وحينئذ فزعتُ من يد خلفي تمسك بذراعي تدفعني لنخرج من باب هذه الغرفة لأجدني في غرفة مصفحة أخرى تبعث من أرضيتها إضاءات حمراء ، و على جدارها شاشة كبيرة تعرض التجارب الكيميائية الشهيرة ، وعلى الجدار الآخر شاشة تعرض التجارب البيولوجية المعروفة لدي ، وفي هذه اللحظة جلست أنا وذاك الرجل الغريب ، ولكن ما استوقفني أنهم عرضوا ما كنت أقوم به من تجارب !!

كيف التقطوا مقاطع مرئية لتجاربي وأبحاثي داخل مركز البحوث البيولوجية؟!

هل هناك مَن صورني ممن يعملون معي ؟! أو أن هناك أجهزة مراقبة خفية؟!

إلى الآن لم أتوصل إلى إجابة مما دفعني إلى القلق إزاء نفوذهم و سيطرتهم على مَن حولنا ، وإقناعهم بالعمل لحسابهم ...

في هذه اللحظة شرد ذهن يوسف إلى النائب ضرغام مالك الذي ثبتت التحريات عنه براعته في الإقناع ، لكنه صمت تاركًا إبراهيم يكمل حديثه:

وعندما تأملتُ في الشاشة وجدتُ الرجل غريب الأطوار يقول لي:

إنها تجاربك دكتور إبراهيم ، أليس كذلك؟

أنت متميز يا دكتور ، وأبحاثك مدهشة ، نحن نحتاج إلى باحث مثلك يعيننا على التطوير والخروج إلى العالم بقوة لا تستهان بها .

وأثناء ذلك انتابتني صدمة واستنكار شديد من رؤية تجارب كيميائية إشعاعية تُعرض على الشاشة الأخرى لها تأثيرها السلبي ، و بعضها قاتلة خطيرة تُجرى على البشر ، ليعقبها تجارب لعقاقير مستحدثة الصنع حيث يُحقن بها هؤلاء على سبيل التجربة قبل إثبات فعاليتها و مدى تأثيرها السلبي والإيجابي ، صحيح أن ماهر رحمه الله أخبرني بذلك لكني لم أتوقع أني سأرى مثل هذه التجارب المحرمة بعيني...

أثناء ذلك قام يوسف يخطو بضع خطوات تجاه الصورة التي جمعت بين إبراهيم وماهر ، وقد أوشك على التيقن بأن أستاذ الكيمياء النووية ضرغام مالك هو صاحب المنظمة ، لكنه لم يفصح عما دار في رأسه ، بل وجه سؤالًا إلى إبراهيم:

لمْ تقل لي .. لماذا شككت في معلمك النائب داغر بدران ؟؟

أجابه إبراهيم يستكمل:

بعد مشاهدتي لما عُرض على الشاشتين ، قال لي غريب الأطوار:

كيف حال أستاذك داغر بدران؟

نظرت إليه متعجبًا من سؤاله هذا ، فأكمل حديثه:

بلغ تحياتي للنائب بدران.

ثم قام مطلقًا ضحكات زائفة آمرًا مساعده بالتحفظ عليّ إلى أن تأتيه أوامر أخرى ، و بعد خروجه من الغرفة ظل مساعده واقفًا ينظر إليّ نظرات لم أفهمها حينها ، جعلني حائرًا أفكر في نظراته ، يتحرك يمينًا ويسارًا ، يبدل بين التفاته نحوي والتفاته نحو الأرض ، إنه لرجل غامض ، وبعد مرور دقائق معدودة اتجه نحوي واضعًا ورقة سوداء صغيرة في جيبي بخفة وسرعة ، وعندما سمعت صوت جرس الساعة أمسك بذراعي بقوة ، وخرجنا من باب الغرفة إلى ممر طويل أحمر الجدران كاحمرار الدم بها خطوط سوداء ، فانقبض صدري إلى أن دخلنا إلى بهو كبير تملأ جدرانه صورٌ للتجارب و العقاقير والفيروسات وما شابه ذلك ، فتركني وذهب ، فإذا بي أرى

طاولة كبيرة عليها جميع الأدوات والمعدات كالتي نستخدمها في مركز البحوث كأنني في معمل ، ولكن على أعلى مستوى من التقنيات الحديثة التي أبهرتني ، وفجأة سمعت صوتًا يحدثني بمكبرات صوتية داخل هذا المعمل قائلًا:

كيف حالك دكتور إبراهيم؟ نرحب بك في معملنا ، نرجو أن ينال إعجابك ، لدينا طلب عندك ونأمل أن توافق على تنفيذه بهدوء و برغبتك ؛ لكي لا يتم إكراهك وإجبارك على تنفيذه ، ففي كل الأحـوال ستنفذه، فسألتـه عن هذا الطلـب فأجابـني:

أن تستكمل تطوير فيروس تم تصنيعه من مرض فتاك أصاب قردًا.

وحينذاك أحسست بشعور غريب مريب عند سماعي طلبه وكأنـي بالفعـل أتعـايش مع مشـهد خيــال علمي بشكل مختـلف، فقلـت له:

عفوًا !!

كيف أستكمل تطويره؟!

ومن الذي صنعه من الأساس؟؟ ولمَ صُنع؟

أجابني الرجل المجهول:

ليس من شأنك الآن ، فقط أريدك أن تنفذ ما قلته ، وأمامك متسع من الوقت لترى هذا الفيروس وتفحصه ، هيا .. فأرني ما لديك .

في هذه اللحظة توقف عقلي عن التفكير ، غير قادر على الاستيعاب ، فقد تيقنت أني وقعت في فخ كبير ، ولن أخرج منه أبدًا ، فاستسلمت لهذا الواقع المرير ، ولكن غلبني الفضول ، و أبهرتني تلك التقنيات الحديثة التي لطالما كنت أحلم أعمل بها ، فأمسكت بالأدوات و أمامي علبة مُحكمة الغلق بداخلها الفيروس ، لكن يداي ارتجفتا فأوقعتُ ما في يدي على الأرض ، فإذا بي محاط بمجموعة من الثياب السوداء حولي من كل جانب ، فانتفضتُ ذعرًا ثم قال الرجل المجهول:

لا عليك ، سنأتيك بغيرها .

لكني قلت له:

أريد فقط أن أعـود إلى المـنزل لأنـال قسـطًا من الراحـة ، فلن أستطـيع العمـل تحت ضغط عصـبي ، فأمهلنـي أيـامًا.

أجابني الرجل المجهول:

لك ما تريد ، ولكن من الممكن أن تستنتج ماذا سيحل بك إن تفوهت بكلمة ، سأرسل من يأتيـني بك بعد أيـام كما طلبـت.

فقلتُ له وكأن الفرج المؤقت قد جاءني:

نعم نعم ، أعدك .

وبالفعل خرجت من المبنى و كدت أسجد لله شكرًا لبقائي سالمًا أتنفس الصعداء.

فكر يوسف مليًا ، ثم قال له:

أليـس من المحتمل أن يكون أستـاذك هو الذي صنـع الفيروس؟

فرد عليه إبراهيم بعدما فكر هنيهة:

بلى أيها الرائد ، للأسف أستاذي داغر هو مَن صنع هذا الفيروس من مرض قاتل أصاب قردًا فقتله ، هذا ما عرفته بعد عودتي من المبنى حينذاك.

قال يوسف مستنتجًا:

وبالطبع عرفتَ ذلك من خلال الورقة التي أعطاك إياها ذلك الرجل مساعد غريب الأطوار ، أليس كذلك؟

رد إبراهيم:

بلى ، فبمجرد دخولي البيت دخلت غرفتي مغلقًا بابها ، ثم أخرجت تلك الورقة من جيبي ، وفتحتها لأجد الغرفة تدور من حولي من هول الصدمة ، فجلست أتساءل مستنكرًا ، وقد أصابني يأس شديد ممزوج بعدم تصديق هذه الورقة :

أ معقول؟! أستاذي الذي تربيت على يديه على أخلاق المهنة!!

أستاذي الذي طالما كنت أكن له كل الاحترام والتقدير !!

لماذا صنع هذا الفيروس القاتل؟!

هل كان ذلك نتيجة تهديد تلقاه من هؤلاء المجرمين أو أن هناك سرًا لا أعرفه ؟

صمت يوسف لحظة ثم سأله:

هل واجهت داغر بدران ؟

رد إبراهيم:

نعم ، دفعني الفضول إلى أن أحدد معه موعدًا للقائه بحجة احتياجي له في تجربة أجريها ، فلم يتردد في مقابلتي لكني

اخترت منزلي ليكون مكان لقائنا ، فلا أحد يسمعـنا ولا هو يشك بي ، وجاء موعدنا و زارني بالفعل ، وأثناء تبادل الحديث سألته عن تجربة صنع الفيروس من مرض لحيوان على اعتبار كونها تجربة خاصة بي قائلًا له:

إذا أردتُ أن أصنع فيروسًا من مرض لحيوان ما ، وهذا المرض فتاك ، فهل سيقع عليَّ عقوبة ؟

كلنا نعلم أن مثل هذه التجارب محرمة دوليًا ؛ لأنها تفتك بالبشرية والكائنات الحية ، يعني قيام حرب بيولوجية مدمرة تطيح بالعالم أجمع ، وأنت تعلم بقية النتائج التي لا يتمناها أي إنسان ، ومن هنا أسألك إن صنعتُ ذلك بغرض قياس مدى تأثيره في الكائن الحي فقط دون نشرها فهل سأعاقَب؟؟

في تلك اللحظة رأيته يهتز ، وعيناه تتأرجح يمينًا ويسارًا ، وكأنه قد أحس بأني كشفت فعلته ، فقال لي بعدما بلـع ريـقـه:

ولماذا هذه التجربة تحديدًا؟

هل طلب منك أحد القيام بها؟

فنظرتُ إليه صامتًا ، ثم قمت من مجلسي متجهًا إلى مكتبتي آخذًا كتابًا كي ألتقط من بين صفحاته الورقة السوداء ، ثم التفت إليه فوجدته يدهشني بقوله لي:

يا بني ، ماذا لو علم بها أحد ؟ لا تتهور ولا تندفع ، لا تسمح لأحد أيًا كان مركزه أو نفوذه أن يسيطر على عقلك و يسلب منك كل ما تملك كباحث أمين شريف ، حتى وإن وصل به الأمر إلى تهديدك أو ترويعك ، فمهما وصل الإنسان إلى منـاصب ، ومهـما امـتـدت يـداه بنفـوذه إلى كسـب المطامـع

والتلاعب بمصائر النـاس ، فلا يمكنه أن يستغني عمن هو أعلى منه منزلة في العلـم والفكر سواء أ كان عالمًـا أو باحثًـا أو أستاذًا ، طالما لم يستطع الاستيلاء على سطوة علمه وسلاحه.

شعرتُ أيها الرائد أن أستاذي ما زال بخير ، ومازال يعلمني من تجارب الحيـاة ما لا أراه ، إذا كان أستاذي تـورط واقتـرف خطـأ لا يغتفر إذ سيسبب في تدمير أحلام الأبرياء في العيش بسلام ، فهذا لا يمنع أنه غلبني بهذه الكلمات ، بل جعلني أحتقر نفسي عندما وقفت ضعيفًا أمام ذاك الرجل المجهول ، وفي ذلك الوقت أجدني أمسك يده أقبّلها قائلًا:

سامحني يا معلمي ... سامحني على إساءة ظني بك في التشكيك في أخلاقك.

ثم أعطيته الورقة السوداء يقرؤها .....

انتفض يوسف مستنكرًا من تسرع إبراهيم في تصرفه هذا ، ممسكًا يده بقوة قائلًا بصوت غاضب:

ماذا !!! ماذا !! أعطيته الورقة ؟؟

أ لا ترى أنك بذلك تكون قد أفسدت كل شيء ؟؟

أليــس من الممكـن أن يكون أستـاذك هذا قد خدعـك حتى لا يخسر ولاءك له؟

فرد إبراهيم في هدوء:

لا لا يا سيدي ، فأنت لا تعلم ما في الورقة السوداء ، سأفتح هاتفي المحمول أعرض عليك صورة التقطتها لما هو مكتوب بالورقة .

أخذ يوسف الهاتف فإذا به يقرأ :

"عندما تقرأ رسالتي هذه لا أعلم سأكون على قيد الحياة أم لا ، فأنا لم أرد من هذه الحياة إلا محاولة كشف أصحاب هذا المبنى الذي أعمل فيه ، المبنى الأسود الذي لا يدخله أحد إلا وتورط في كارثة أو تعرض للتشريح أو التعذيب أو إجراء تجارب ، ولذلك على مَن تأتيه الفرصة لقراءة ورقتي هذه أن يحسن التصرف تجاه هؤلاء ولا يكشف جرائمهم إلا بأدلة ملموسة لا ثغرَ فيها .

يحكم هذا المبنى رجل عنده حصانة ، له باع طويل في مجال من المجالات العلمية من إشعاعية أو كيميائية أو فيزيائية ، و آخر في نفس المنصب ساعده في إنشاء صفقة ممنوعة لكنه لم يستكمل ، هذا الرجل الآخر هو النائب داغر بدران ، ولكني لا أدري سبب توقفه وعدم إلحاق الأذى به .

مجلس النواب ليس فيه من هو متخصص في تلك العلوم إلا ثلاثة رجال : بدران ، مالك ، والشربيني."

تأمل يوسف إلى الورقة عند قراءتها ، ثم سأل إبراهيم:

هل توصلت إلى هوية صاحب الرسالة؟

أجابه إبراهيم:

لا للأسف.

فقال يوسف وهو ما زال ينظر إلى الورقة:

أرجو ألا يكون قد تضرر أو قُتل ، هذا الرجل هو المفتاح الذي يفتح لنا بابًا إلى هوية الرجل المجهول وشركائه ، وأهدافهم ،

ومَن يقف وراء تمويل تجاربهم وأسلحتهم ... وما خفي كان أعظم.

رفع يوسف رأسه يتطلع إلى إبراهيم يسأله:

قل لي يا دكتور إبراهيم ، ما رد فعل بدران عند قراءتـه لهـذه الورقة؟

وما سر إقدامه على القيام بهذا الأمر المريب وأنت تقول إنه أستاذ ذو أخلاق كريمة؟

أجابه إبراهيم:

استغرب أستاذي من فحوى الرسالة ، حيث أخبرني بأن ليس في المبنى من يجرؤ على كتابة مثل هذه الرسالة إلا إذا كان ينوي على الانتحار من كثرة ما رآه على أيديهم ، أو تلبية لأمر زعيمهم ؛ لتسليط الضوء على النواب بعيدًا عنه ، وفي هذه الحالة تصبـح هـويتـه مجهولـة لا علاقـة لها بهـؤلاء النـواب.

فرد يوسف متمتمًا في ضيق:

ما هذه القضية؟!

أ لم يحن موعد إغلاق ملفها؟!

***

رجل بلا هوية

وفي شارع من شوارع المهندسين ذهب نوح الشربيني إلى المشفى حيث يرقد ذاك الرجل المغشي عليه أمام منزله ، فسأل الطبيب المعالج عن حالتـه ، لكن الطبيب رد عليـه بسـؤال:

هل تعرفه؟

فأجابه:

لا ، كل ما أعرفه أني وجدته مغشيًا عليه أمام منزلي ، والناس حوله إلى أن جاءته سيارة الإسعاف وأخذته.

فأردت أن أطمئن على حالته ، فكما تعلم أيها الطبيب أنا نائب و على استعداد لمساعدة أهلي و جيراني وأصدقائي ومن حولهم .

فقال الطبيب:

للأسـف نحـن لا نعـلم عنـه شيـئًا ، فهو مجهـول الهويـة لدينا.

سأله نوح:

وما حالته؟

رد الطبيب:

كومة (coma)

رد نوح باستغراب:

ماذا !! أ لهذه الدرجة؟

أجابه الطبيب:

نعم ، إنه في غيبوبة ، و بعدما أجرينا له الفحوصات والتحاليل اللازمة ، رأينا بعض أعضاء جسده منتهية لكنه لا يزال على قيد الحياة.

فسأله نوح:

اشرح لي من فضلك.

أجاب الطبيب:

فشل في وظيفة الكبد والكلى ، و وجود خلايا سرطانية بالمعدة ، ولا ندري طبيعة عمله ، والأسباب كثيرة لتلف هذه الأعضاء.

فشكره نوح وكاد يذهب لكن الطبيب استوقفه قائلًا:

عفوًا أيها النائب ، هلا أسديت لنا خدمة؟

رد نوح:

لك ما تريد.

قال الطبيب:

نريد منك محاولة الوصول إلى بياناته ، أهله ، أقاربه ، أيمكنك ذلك ؟ وسنكون لك شاكرين على تعاونك معنا .

رد نوح:

نعم نعم ، سأحاول ولكن لن أعدك ، تعرف انشغالي و ما ورائي من مسئوليات .. هذا مبـلغ من المال لخدمة هذا الرجل.

فقال الطبيب:

جزاك الله خيرًا ، لك أن تدفع في قسم الحسابات.

خرج نوح الشربيني من المشفى يفكر في الرجل المريض

يحدِّث نفسه في ضيق:

الشارع كله أمامه ، و لم يقع إلا أمام باب منزلي !

هل هناك من التقط صورة له ؟ أرجو ألا يكون ذلك قد حدث ...

لماذا أمام باب منزلي ؟؟ لماذا؟

ذهب نوح إلى عمله ، و قد طال تفكيره في الرجل المغشي عليه ، وبعد مرور وقت قصير أجرى اتصالًا هاتفيًا بضرغام مالك قائلًا:

مرحبًا سيد ضرغام ، أريد أن أستشيرك في أمر ما.

رد ضرغام:

نعم ، تفضل سيد نوح.

حكى نوح ما حدث له أمام الناس ، و زيارته لذلك الرجل في المشفى ، وقد استمع ضرغام إليه في اهتمام ، ثم رد عليه:

لا عليك سيد نوح ، لِمَ أنت متوتر ؟

أصبحت الواقعة بعيدة عنك برقود الرجل في المشفى ، فلا تقلق بهذا الشأن .

هيا يا رجل اذهب واسترح ولا تلقِ بالًا .

***

أدلة الإدانة

مر يوسف على مكتب اللواء طارق النرويجي في الصباح الباكر ، فدخل إليه يعرض مستجدات القضيـة التي ينتـظرها اللواء فقـال:

صباح الخير يا سيدي ..

رد اللواء:

ها ... سيد يوسف ، ما المستجدات؟

قال يوسف:

حصلت على معلومات بشأن المتورطين في جرائم الانتحار .

قال اللواء في اهتمام:

تقصد حوادث الانتحار.

رد يوسف:

لا سيدي ، جرائم القتل.

فسأله اللواء مستغربًا:

كيف أيها الرائد؟

رد يوسف:

عن طريق جهاز إشعاعي يُطلق في الجبهة تفقد المجني عليه الوعي ، فتصيبه حالة اكتئاب شديدة مما يؤدي إلى الانتحار ، والمسئول عن كل هذا أحد أعضاء مجلس النواب ، يدير منظمة كبيرة من خلال تجارب كيميائية وبيولوجية خطيرة مدمرة للعالم.

قال اللواء طارق:

ما هذا الكلام أيها الرائد ؟! هذا الكلام خطير.

هل لديك أدلة؟

رد يوسف:

عندي شاهد من الباحثين البيولوجيين ، و آخر من أعضاء مجلس النواب.

فقال اللواء:

شهود فقط أيها الرائد !!

أريد أدلة ملموسة ، أدلة تُثبت لنا الحق في رفع الحصانة عن هذا النائب إن كانت تلك المعلومات صحيحة.

لاحظ اللواء امتعاض يوسف من الشك في معلوماته ، فقال له:

يوسف ... أنت مخلص في عملك ، و دائمًا تغلق ملفات القضايا بالكشف عن الحقائق كاملة ، لكن في هذه القضية على حسب تحرياتك المتهم فيها لديه حصانة ، فلا بد من أدلة ملموسة .

صحيح أيها الرائد ، مَن مِن النواب المتهم بذلك؟

رد يوسف:

أمامي نائبان أحدهما هو المسئول : ضرغام مالك أو نوح الشربيني.

قال اللواء:

ماذا؟

تأكد أيها الرائد من تحرياتك وأعطني أدلة ملموسة قاطعة

لا تقبل الشك حتى لا نتعرض للهجوم وعدم المصداقية ، واعلم أنك إذا قدَّمت تلك الأدلة فلن أتردد في أن أرفع الحصانة عن أي منهما تثبت عليه الجرائم ، وتأخذ العدالة مجراها.

فقال يوسف:

علم سيدي.

***

العقرب

دخل يوسف إلى مكتبه فجلس مسترخيًا على الكرسي قليلًا ، والخواطر والأفكار تدور في رأسه مغلقًا عينيه يحدّث نفسه:

أين الأدلة ؟ لا بد من أن أضع يدي عليها حتى لا يضيع كل ذلك.

وأثناء ذلك رنّ هاتفه المحمول عدة مرات لكنه لم يرد من شرود عقله ، ثم رنّ ثانية فإذا به ينتفض من على الكرسي ، ممسكًا بالهاتف قائلًا:

مرحبًا سالي ، كيف حالك؟

ردت سالي:

بخير الحمد لله ، هل أنت بخير؟

قال بصوت يخالطه التعب والضيق:

نعم نعم .. هل من جديد بشأن حامد؟

أجابته:

نعم ، خرجتُ من الجريدة منذ قليل ، فإذا بي أجد سيارة (جيب) سوداء تحمل نفس أرقام اللوحة ذاتها التابعة للمبنى الأسود تقف على الرصيف المقابل للجريدة ، فراودني شعور مريب ، فأكملت سيري ، و لم أبتعد حتى رأيت حامدًا خارجًا من الجريدة يركب سيارته منطلقًا فإذا بالسيارة السوداء تتبعه مباشرة ، فركبت سيارة أجرة لمراقبتهم حتى وصلوا إلى بيت حامد ، وها أنذا واقفة أنتظر ما يحدث.

فهب يوسف خارجًا من مكتبه و هو يقول لها في عجلة:

انتظري يا سالي ولا تتحركي ، سآتيك على الفور.

أثناء انتظار سالي وقعت عيناها على رجال خرجوا من تلك السيارة السوداء ، فإذا بها تشخص ببصرها إلى طفلة بينهم دخلوا بها إلى بيت حامد ، فبدا على وجهها ملامح الانزعاج ، وقد ارتجف قلبها من الخوف ، أما حامد فقد دخل على زوجته الحزينة الباكية حتى كادت دموع عينيها تجف من الألم و الحسرة ، فأمسك يديها وقبَّلهما يحاول مواساتها و مواساة نفسه قائلًا:

لا تقلقي عزيزتي ، لا تقلقي ، بإذن الله ستكون ابنتنا بخير ، وهو القادر على كل شيء ، هؤلاء المجرمون لا يريدون منها شيئًا ، فأنت تعلمين أنهم يريدون بطاقة الذاكرة التي معي.

ثم أعطاها منديلًا بيده المرتجفة ، و في تلك اللحظة سمعا طرق الباب ، ففزع حامد متجهًا نحو الباب متباطأً ثم فتح ، فإذا برجال المنظمة يقتحمون الشقة و معهم ابنته وهي تنهمر بكاءً فهبّت زوجته تصرخ:

لارا .. لارا ... ابنتي .. اتركوها ..

فقطع صوتَها صوتٌ غليظ يقول بلهجة عنيفة:

أعطنا البطاقة الآن.

لكن حامدًا لم يردّ ، وعيناه تنظران في شغف إلى ابنته فأعاد العقرب كلامه مهددًا:

أعطني البطاقة يا حامد و إلا لن ترى ابنتك هذه أبدًا...

فتوجه بعين التهديد إلى سارة مستكملًا:

أخبريه يا سيدتي أنك لن تري ابنتك الوحيدة إن لم ينفذ ما طلبناه الآن.

فردت سارة في ثورة وبكاء ، و ابنتها تصرخ:

أيها الوغد الحقير ..

رد عليها العقرب بابتسامة حقيرة تعلو شفتيه و هو يهز رأسه يمينًا ويسارًا:

لا لا لا ... يا للمسكينة ، لو كنتُ كما تقولين لقتلتها بيدي عندما علمنا أن الصحفية المجدة التي تُدعى .....

فاتجهت عيناه إلى حامد مستطردًا:

أليس اسمها سالي يا حامد؟

فنظر إليه حامد متفاجئًا صامتًا ، فأكمل العقرب في استهزاء:

أليس كذلك؟

فرد حامد في تردد:

بلى ...

فاتجه العقرب نحو حامد مقرِّبًا وجهه منه قائلًا:

هذه الصحفـية كانت مـوجودة في شقة ماهـر ، أليـس كذلك؟

وهي التي أعطتك البطاقة الذكية ....

حقًا إنها فتاة جريئة ذات شخصية ، أرجو أن تستكمل سالي مشوارها هذا معنا بهذه الجرأة ، و من سوء حظها أنها كانت تحت المراقبة.

سيطر على حامد قلق وخوف على سالي ، وما قد تواجهه من خطر ، فقال بصوت مضطرب:

دع سالي وشأنها ، فهي لا تعلم شيئًا عنكم ، أنا الذي طلبت منها ذلك.

التفت العقرب إلى مَن معه من الرجال قائلًا في سخرية:

جميل منك أن تدافع عنها وتبعدها عن مشاكلنا.

ثم أطلق ضحكات ساخرة ملتفتًا نحو (لارا) قائلًا:

إن أباك رجل طيب حقًا .

وفجأة أحاط بذراعه رقبة الطفلة ممسكًا بكتفها ، مصوبًا فوهة سلاحه إلى مركز رأسها ، و بأعلى صوت يقول:

هيا .. هيا .. أعطني البطاقة .. هيا

فانطلق حامد إلى غرفته مسرعًا يرتجف جسده ، و زوجته تصرخ:

لا ، لا ، اتركها ، اتركها ..

وبينما هم على هذه الحال وصل يوسف إلى بيت حامد ، لكنه ظل في سيارته يبحث بعينيه عن سالي ، فاتصل بها ثم ردت تسأله:

أين أنت يا يوسف ؟

فقال لها:

أنا في السيارة تحت منزل حامد، هل ذهبت؟

قالت له:

لا ، أنا على الجانب المقابل لبيته ، لقد ارتعدتُ عند رؤيتي لهؤلاء ممسكين بابنة حامد ، ففهمت سبب توتره وإصراره على كتم ما بداخله من الهمّ ، وبعدما دخلوا بيته اختبأتُ خوفًا من أن يراني أحدهم.

فقال يوسف:

إذًا ابقي كما أنتِ إلى أن يخرجوا من بيت حامد ، وفي تلك اللحظة سأصعد إليه بينما تظلين مكانك حتى أرجع إليك.

أما حامد فقد خرج إلى العقرب ببطاقة الذاكرة ، فأعطاه إياها مطالبًا استرجاع ابنته ، فإذا بالعقرب يدفعها نحو رجاله ليأخذوها معهم هاربين من الشقة فصرخ حامد:

لا لا ، انتظروا ، لا تأخذوها ، أعطيتكم ما تريدون.

فرد العقرب و هو عند مدخل باب الشقة:

لا ، لن تأخذها حتى نتأكد من سكوتك ، و أنك لم تبحْ بأية كلمة للرائد يوسف.

فخرج مسرعًا وراء رجاله منطلقين بالسيارة .

انتظر يوسف قليلًا في سيارته متنكرًا بنظارة طبية وشعر رجالي مستعار حتى اطمأن إلى ذهابهم بعيدًا ثم صعد إلى حامد ، فوقف أمام باب الشقة طارقًا ، فرد حامد مِن وراء الباب في توتر:

من ؟؟ من الطارق؟

طرأ على بال يوسف أن حامدًا قد لا يفتح له الباب إن علم أنه الطارق ، فلم يجبْه بل طرق الباب مرة أخرى واقفًا جانبًا حتى فتح حامد الباب ، وعندئذٍ تفاجأ به أمامه لكن يوسف دخل بقوة على غفلة من حامد مغلقًا الباب وراءه ، فوقف حامد ينظر إليه نظرات مريبة نابعة من شبح الخوف المحيط به من كل جانب ، أما سارة فقد دخلت الغرفة في سرعة لئلا تتورط في التحدث عما حدث .

فَهمَ يوسف ما وراء تلك النظرات من عدم رغبة حامد في التحدث إليه ، لكنه لم يأبَه بذلك بل عزم على أن يلاحقه في تبادل الحديث ، و يظل وراءه إلى أن ينزع منه كل ما يبحث عنه.

جلس يوسف مراقبًا حركات عيني حامد و يديه ، فبدأ حواره :

مرحبًا حامد ، آمل أن أكون قد أتيتك في الوقت المناسب .

نظر حامد إليه والدموع تتأرجح في عينيه محاولًا أن يتمالك نفسه أمامه ، لكنه التزم الصمت وقد خفض رأسه يحدق إلى الأرض فقال يوسف:

حسنًا يا حامد ، يبدو أن زيارتي لك غير موفقة اليوم.

لا تزال يا حامد قلقًا متوترًا ، فهلا أنصت إليّ ؟

قال حامد:

ماذا تريد يا يوسف؟

رد يوسف في هدوء:

حمدًا لله أنك نطقت ، خشيت أن يكون لهؤلاء المجرمين علاقة بالتزامك الصمت.

انتفض حامـد مضطربًـا قلبـه ، ففزع من مكانـه متجهًا إلى الصوب الآخر من البهو قائلًا بصوت غاضب يشوبه التلعثم:

ماذا؟ ماذا؟

مَن هُم؟ لا ، لا أدري عمن تتحدث.

قام يوسف من مكانه ، فاعتدل واقفًا يحرك ساعته كعادته قائلًا:

ما علاقتك بهم؟

وما ذنب ابنتك؟

في هذه اللحظة اهتز الهاتف المحمول في جيب يوسف مرة واحدة ، بينما التفت حامد إليه موجهًا بصره إلى النافذة قائلًا بصوت مهموم:

ماذا بها ؟ ابنتي على ما يرام.

فرد يوسف:

حقًا .. إنها على ما يرام ، والدليل أن رجال المنظمة يحملونها وكأنها نائمة و هم خارجون من عندك !!

و أثناء حديثه سمع صراخًا فجأة:

ابنتي ، ابنتي ، يا حبيبتي ماذا فعلوا بك؟؟

فإذا بزوجة حامـد تخرج إليهم يعلوها البكاء والنحيب على ابنتها ، فوجه يوسف إلى حامد نظرات تحمل العتاب الشديد ، فنطق حامد بعد كتمانه:

لا تفهمني خطأ يا يوسف ، ليس لي أي علاقة بهؤلاء ، كل ما في الأمر أنهم يريدون مني شيئًا في مقابل ابنتي.

استغرب يوسف من كلام حامد فسأله:

ما هذا الشيء؟

هل أنت أيضًا متورط معهم؟

رد حامد بلسان متردد بعض الشيء:

لا لا ، ليس كما تظن، وإنما وإنما ....

قال يوسف في شيء من الغضب:

قل يا حامد ، أفصح عما تكتمه .

هيا ... ليس هناك وقت ، إلى متى ستظل سلبيًا هكذا؟!

أين ذهبت الشجاعة وحسن التصرف؟

هل كان ذلك كله تمثيلًا ؟ ماذا يا حامد ؟ماذا؟

جاءت كلمات يوسف كسهام صحوة اخترقت صدر حامد ؛ لتصفيته من شوائب الهم والخوف ، فجلس مُفصحًا:

لما توصلتَ إلى المبنى الأسود علمتَ بالتأكيد علاقة ماهر بتلك المنظمة ....

رد يوسف في اهتمام:

بالطبع ، بالتفاصيل.

قال حامد بعدما أخذ نفسًا عميقًا:

ليس لي علاقة بالدكتور ماهر ، ولم ألتقِ به قط بل عرفت بحادثته فأرسلتُ سالي إلى مكان الحادث ، وبعد مرور وقت لا بأس به أجريت اتصالًا بسالي لأطمئن على سير تغطية الحدث ، كما أفعل دومًا مع الصحفيين عندي من باب الحرص على سلامتهم ، فردتْ على مكالمتي بعدما اتصلت للمرة الثانية قائلة لي:

أنا في موقع الحادثة وصعدت إلى شقة المنتحر في هدوء تام دون أن أحدث ضجة ، فرجال الشرطة كانوا منتشرين في كل مكان.

فقلت لها:

إذًا أنجزي مهمتك و تعالي على الفور.

لم أخرج من الجريدة حتى عادت سالي منهكة ، و لكن عندما دخلت إلى مكتبي رأيتها تغلق الباب وراءها ، واقتربت نحوي مخرجة من جيبها بطاقة ذكية التقطتها من الشقة ...

تعجب يوسف من ذلك فسأله:

كيف أخذتْها؟

رد حامد:

فهمتُ منها أن البطاقة كانت واقعة على الأرض ، حيث لاحظت قطعة سوداء لشريحة إلكترونية تحت النافذة مباشرة أثناء التقاطها صورة لنافذة الحادثة ، و في لحظة التقطتها قبل أن ينتبه أحد من رجال الشرطة ، و ربما فعلت ذلك قبل دخولكَ للشقة ... لا أدري

قال يوسف يتذكر ما حدث في ذاك الحادث:

نعم .. بالتأكيد ..

عند دخولي الشقة لم أجد أي شيء على الأرض يشير إلى الحادثة ، حتى رجالي كانوا يتعقبون آثار الأقدام و البصمات ، فمن المؤكد أنها أسرعت بأخذها قبل أن يلاحظ أحد .

استكمل حامد:

بعدما أخرجتْ لي البطاقة أخبرتني بأنها شكتْ في أمرها ولذلك أتت بها نفحصها ، وإن لم يكن عليها ما يخص الحادثة فسترجعها إلى زوجة ماهر.

وبالفعل استحسنتُ تصرفها وأخذت برأيها ، لكني طلبت إليها الذهاب إلى مكتبها حتى أرى ذلك ، و بعد قليل فتحت جهازي الحاسوب واضعًا البطاقة وأنا غير مبالٍ بعض الشيء ، فُتحت البطاقة فإذا عيناي يملؤها الذهول فاعتدلتُ في جلوسي منتبهًا ، فأرى رجالًا أصحاب الثياب السوداء في شقة ماهر ، وبينهم نقاش حاد لم يلبث طويلًا ، فإذا بي أشاهد أحدهم يصوب جهازًا غريبًا لم أرَ مثله من قبل على جبهة ماهر في ثوانٍ ، ثم انطلقوا خارج الشقة في سرعة ، فوقع ماهر على الأرض لكن البطاقة استمرت بضع ساعات في التصوير ، فرصدت نهوض ماهر من إغمائه ، وجلوسه على الكرسي بضع ساعات لم يحرك فيها ساكنًا ، ثم قام فجأة متجهًا إلى النافذة فألقى بنفسه منها.

قال يوسف:

إذًا هؤلاء نفذوا العملية بعد منتصف الليل.

رد حامد:

ربما ... في تلك اللحظة لم أتمالك نفسي ، فشعرت بخوف شديد من هذا المشهد فقمت آخذًا البطاقة معي ، ومنذ ذلك اليوم ظلت البطاقة في منزلي إلى أن أخذوها اليوم مني.

سكت حامد هنيهة والدموع في عينيه ، ثم قال مستكملًا:

أعطيتهم البطاقة اليوم مقابل استرداد ابنتي ، لكنهم أخذوها أيضًا فلا عهد لهم ، و سبب ذلك خشية أن أخبرك بما حدث لأنك صديقي ، فهُم لن يتركوا ابنتي حتى يتأكدوا من سكوتي ، فما العمل؟

سكت يوسف يفكر ، لكنه تذكّر سالي و هي تنتظره في الشارع قائلًا:

يا إلهي ، تركت سالي في الشارع تنتظرني مختبئة.

رد حامد على الفور وقد غلبه الفزع:

ماذا؟

هؤلاء المجرمون يعرفون ما قامت به سالي ، وهددوني بها أيضًا ، ألحق بها يا يوسف.

خرج يوسف في سرعة من بيت حامد ، وأخذ يبحث عنها هنا وهناك في الشارع فلم يجد لها أثرًا ، فأخذ يناديها لربما تسمعه ولكن دون جدوى ، فوضع يديه على رأسه في توتر ، ثم أخرج الهاتف من جيبه فوجد رسالة جاءته من سالي منذ ساعة نَصّها:

يوسف أنا في ورطة رجال .....

هنا تيقن يوسف أنها خُطفت ولم تستطع إكمال الرسالة ، فمكث يوسف في سيارته مغلقًا عينيه ، يفكر في إمعان في هذه القضية ليربط بين أحداثها متأملًا في النائبيْن ضرغام و نوح وعلاقتهما بالمنظمة كي يضع حدًّا لهذه القضية الغامضة.

***

وفاة غامضة

أشرقت الشمس على يوسف ليجد نفسه في السيارة وقد غلبه النعاس ، فنهض ثم أمسك هاتفه يتفحص فيه ، وأثناء ذلك جاءه اتصال من حسام ، فاعتدل في جلوسه ثم سمعه يقول:

صباح الخير سيد يوسف ..

عندي لك خبر ، أعتقد أنه مهم في خدمة هذه القضية.

قال يوسف وقد كبس زر تشغيل سيارته:

أخبرني يا حسام..

قال:

عرفتُ من ضابط زميلي في قسم الشرطة بالزمالك أن مشفى الزمالك بلَّغتْ عن رجل وجدوه مغشيًا عليه في الشارع أمام منزل النائب نوح ، وبعد إجراء الفحوصات والتحاليل اكتشفوا أنه يعاني من فشل في الكبد والكلي و ورم خبيث بالمعدة ، وللأسف لم يستدلوا على أي بيانات له ، لكن النائب دفع لهم مبلغًا من المال من أجل هذا الرجل ، ولسوء الحظ وجدوه ميتًا بالأمس.

رد يوسف في سرعة:

جيد ، أنا في الطريق يا حسام ولكن قابلني عند قسم الزمالك.

وصل يوسف إلى شرطة الزمالك حيث دخل هو وحسام إلى الضابط الذي ذهب إلى المشفى ، وهناك سأله يوسف:

هل رأيت شيئًا مريبًا على جثة ذاك الرجل؟

رد الضابط كريم:

لا ، ليس في الجثة أثر لارتكاب جريمة ، فالجثة منتهية من الأساس ، وكان صاحبها في غيبوبة تامة بسبب تراكم المشاكل الصحية المزمنة في جسده ، فمن الطبيعي أن يموت ، لكن المشكلة فقط أنه لم يُستدل على اسمه ، ولا عنوانه ، كان الله في عون أهله.

فقال يوسف:

عفوًا يا سيد كريم ، سؤال آخر ..

ما علاقة النائب نوح الشربيني بالمتوفى؟

فأجابه:

ليست هناك علاقة واضحة ، لكن الطبيب المعالج ذكر أن المتوفى وقع أمام باب منزل النائب ، كما أنه طلب إلى النائب مساعدة المشفى في التوصل إلى بيانات الرجل ، فلم يُبدِ استعدادًا لذلك بل دفع مبلغًا من المال فحسب ، لكن ما السبب ؟ لا أحد يدري.

فسأله يوسف:

هل لديك صورة للرجل المتوفى؟

رد الضابط كريم:

صورة ! لا يا سيد يوسف ، ذهبنا فقط استجابة لهذا البلاغ.

رد يوسف مغتاظًا من داخله:

يا سيد كريم ، هل تأذن لي بشرح ما حدث عند وصولك إلى المشفى بصورة كاملة؟

أجابه الضابط كريم:

تلقينا بلاغًا من المشفى وذهبنا على إثره ، وعندما دخلت على الرجل المتوفى ، و نزعت عنه الغطاء لم أرَ أي أثر لارتكاب أي نوع من الجرائم أو العنف حتى أجهزة التنفس لم يتم انتزاعها ، ولكن سأقول لك معلومة قد تهمك ولا أدري عما تبحث ، عندما نزعتُ الغطاء لاحظت أن منطقة تحت عينيه مالت فجأة إلى الزرقة ، تشوبها ومضة بيضاء ثم اختفت في ثوان ، ثم أرخيت الغطاء ، فسألت الطبيب المعالج عن ذلك فأجابني:

لا أدري ، لم يَرد عليّ مثل هذه الحالة من قبل؟

فغلب على ملامح يوسف وحسام الاستغراب من هذا الكلام ، فقال يوسف:

معلومة غريبة.

شكرًا سيد كريم ، ونأسف لإزعاجك.

خرج يوسف وحسام من القسم صامتيْن ، فقال يوسف:

حسام ، هيا إلى المشفى.

رد حسام:

تريد رؤية الرجل أليس كذلك؟

قال يوسف:

بلى ، حاولْ أن تلتقط صورة له في صمت.

رد حسام:

علم سيدي.

وفي المشفى قابل يوسف الطبيب المسئول عن الحالة المتوفاة ، فطلب منه رؤية الجثة باعتباره رائد يحقق في قضية ، فسمح له الطبيب ، وعند إخراج الجثة من الثلاجة وقف حسام خلف يوسف ملتقطًا الصورة لوجه الجثة دون أن يشعر أحد ، لكن يوسف تمعن في الوجه للتحقق من كلام الضابط كريم ، فرأى الزرقة تحت العينين يعقبها الومضة البيضاء .

وبعد ذلك خرج كل منهما من المشفى عازميْن على الذهاب إلى النائب نوح.

***

مواجهة باردة

في حي الزمالك وصل يوسف إلى شارع (أبو الفدا) حيث منزل النائب نوح الشربيني ، فاستقبله نوح في منزله ، و هب يتحدث عن نفسه وإنجازاته لكنه ظل مضطربًا يجهل الدافع وراء زيارة الرائد يوسف له ، فسأله وعلى وجهه علامات القلق:

عذرًا أيها الرائد ، ما هدف زيارتك لي؟

هل هناك خطب ما ؟

قال يوسف:

ما علاقتك بالرجل الذي أصابه الإغماء أمام باب منزلك؟

أصابت عيني نوح اضطرابٌ حيث ارتجف جفن عينه اليسرى بطريقة ملحوظة ، فوجه حسام نظرة تعجُّب إلى يوسف وقد بادله يوسف النظرة نفسها ، ثم قال نوح:

ما قصة ذاك الرجل؟!

أناس في الشارع يسألون عنه ، المشفى استدعتني بسببه وفي النهاية دفعت مبلغًا من المال وأنا لا أعرفه ، والآن جئت أنت تسألني وكأني متهم !!

رد يوسف وعلى وجهه ابتسامة خفيفة:

لا تخف سيد نوح ، لم أتهمك بشيء ، يبدو أنك نسيت أن لك حصانة ، وأنا الآن لم أتهمك رسميًا ، وليس هناك جريمة ولكن إن ظللتَ على هذا الأسلوب من البداية ، فليس عندي مانع من أن أطلب رفع الحصانة عنك.

وقف نوح فجأة حيث غلبه التوتر والقلق فقال:

لا لا ، ولماذا تتهمني؟

أنا لا أعرف هذا الرجل وقمت بواجبي كمسئول ، وتكفلت بدفـع المال لإقامـته في المشفـى ، ولا أفهـم ما الذي حـدث.

رد حسام:

هذا الرجل مات.

ذُهل نوح من الخبر فقال:

مات!!

ولكني لم أستطع معرفة سبب مجيئه عندي و هو على هذه الحال كما ذكر الطبيب.

فسأله يوسف:

هل سألت عنه أحدًا ؟

هل بلَغَك أن أحدًا يبحث عنه؟

رد نوح:

إطلاقًا.

فخرج يوسف وحسام من منزل نوح فسأله حسام:

لماذا خرجنا قبل أن يخبرنا بما نريد ونبحث عنه؟

رد يوسف:

نوح أخبرنا بما يعرف ، والآن بدت لي الرؤية تتضح ، فهو ليس له علاقة بالمنظمة...

سكت يوسف لحظة ثم استطردحديثه:

عندي زيارة مهمة إلى الهرم.

فسأله حسام:

هل لها علاقة بالقضية ؟

رد يوسف:

نعم ، سأكشف سر البطاقة الذكية .

***

البرهان

ذهب حسام إلى وجهته ، أما يوسف فقد ذهب إلى بيت ماهر يقابل زوجته ، وعند وصوله طرق الباب ولكن لم يستجب أحد ، فقرر الانتظار ، وبينما هو على هذه الحال أمام الباب سمع صوت المصعد ، فراقب بعينيه اللوحة الرقمية للمصعد أثناء صعوده حتى وقف المصعد عند الطابق الحادي عشر ، فوقف جانبًا عند الدرج ، ثم رأى زوجة ماهر تخرج من المصعد نحو شقتها تفتح بابها ، فاتجه إليها مسرعًا قبل أن تغلق الباب حيث جاءها من خلفها ، فالتفتت ناحيته فوجدته على غفلة فكادت تصرخ ، لكنه قال لها:

لا تقلقي سيدتي، أنا الرائد يوسف أ تتذكرينني؟

ردت عليه مباشرة قائلة:

بالطبع، كنت تحقق في شأن انتحار زوجي.

فقال لها:

هلا سمحت لي بالدخول؟

لن آخذ من وقتك كثيرًا ، سؤال ملِحّ سأطرحه عليك إذا سمحت.

أذنت زوجة ماهر له بالدخول ، ثم قال لها :

أعتذر يا سيدتي عن إخافتك ، انتظرتك طويلًا ثم قررتُ التصرف بهذه الطريقة خشية ألا تقبلي التحدث عما يتعلق بحادثة زوجك.

ردت هناء:

بالفعل هذا ما كنت سأفعله تجاهك ؛ لأنني تعبت من كثرة الأسئلة عن هذا الموضوع.

قال يوسف:

أعتذر إليك مرة أخرى ؛ فسؤالي الآن عن شيء ما وقع أثناء انتحار ماهر.

استغربت هناء قائلة:

وما هذا الشيء؟!

أجابها :

البطاقة الذكية...من المفترض أنها كانت في آلة تصوير ، ولكن عُثر عليها ملقاة على الأرض أثناء تواجدنا في الشقة.

فقالت هناء:

كان ماهر محبًا لآلات التصوير ، حيث كان يقوم دائمًا بإجراء تجارب كيميائية في غرفته الخاصة المجهزة كمعمل لبعض التجارب ، ومن هذه الآلات آلة تصوير صغيرة تحمل بطاقة ذاكرة خاصة بها ، مطورة لتصوير تجاربه صوتًا وصورة .....

فسألها يوسف:

هل كان ماهر يأخذها معه أثناء تعامله مع رجال المنظمة؟

ردت هناء:

لا أستطيع إفادتك في هذا الشأن ، لأني لا أعرف سوى أنه تورط معهم ، ومنذ ذلك الحين و هو في اكتئاب وشعور بالذنب لأنه لم يكن بيده حيلة أمام هؤلاء المجرمين .....

ذرفت دموع هناء باكية في هذه اللحظة ، ثم استكملت بصوت يغلبه الأسى:

هؤلاء المجرمون داهموا شقتنا مرة ، و هددوه في مركز عمله أكثر من مرة ، حتى وصل الأمر إلى أنهم خطفوه ولم يطلقوا سراحه إلا بعد موافقته على العمل معهم.

فقال يوسف في أسف:

آسف سيدتي، ذكّرتك بما حدث ، واضح أنكما عشتما أيامًا صعبة.

ردت وهي تتنهد:

نعم ..

فسألها:

ما مقدار الوقت الذي تستطيع آلة التصوير هذه التسجيل خلاله دون انقطاع؟

أجابته:

تظل هذه الآلة تسجل لمدة بضع ساعات متواصلة ، و كان ماهر دائمًا يأخذها معه إلى عمله ، فلا تفارق جيبه لصغر حجمها.

فسألها يوسف متعجبًا:

وكيف وقعت البطاقة هكذا؟

وأين آلة التصوير الآن؟

قامت هناء متجهة إلى غرفتها ثم أحضرت آلة التصوير ، فأعطته إياها ليراها ، ثم قال:

من الصعب أن تقع البطاقة منها بل استحالة ، وما زلتُ لم أفهم كيف وقعت البطاقة منها ؟! أخبريني.

أجابته:

في ذلك اليوم المشئوم داهمنا رجال المنظمة بعد منتصف الليل ، فتبادلوا الحديث مع ماهر شدًّا وجذبًا من أجل التجارب التي يجريها في المعمل الخاص به.

وكان ماهر من عادته أن يضع آلة التصوير في وضع التسجيل ؛ لأنها تتميز بالتسجيل لساعات طويلة ، وأثناء مناقشات رجال المنظمة معه اشتد خلافهم حتى أمسكوه ، فصوبوا نحو جبهته جهازًا غريبًا فأسقطه على الأرض ثم انصرفوا مسرعين.

وفي تلك اللحظة ركضتُ نحو ماهر أناديه لكنه لم يُجب ، فقمت لإحضار كوب من الماء إليه ، وبعدما أفاق جلس على الكرسي ثم قال لي بصوت متعب:

اتركيني .. أنا بخير ..

فتركتُه و أنا قلقة عليه ، وفجأة استيقظت في الصباح الباكر على صرخته فإذا بي أجده يقفز من النافذة ، فأسرعت إليه لأمسك به لكنني ارتطمت بآلة التصوير ، فسقطتْ على الأرض وانكسرت ، ولم ألحق بماهر ... فقد فات الأوان.

في تلك اللحظة سكتت هناء هنيهة وعيناها مملوءة بالدموع ثم استكملت:

وفي اليوم التالي من الحادث ليلًا ، جاءني أحد هؤلاء الرجال ممسكًا ذراعي بقوة يسألني عن تلك الآلة ، حيث كان قد

لاحظ فيها الوميض الأحمر يوم أمس ، فأعطيته إياها وقلت له إنها كُسرت ، لكنه تفحصها ثم سألني:

أين البطاقة؟

فأجبته:

لا أدري.

فسألني ثانية بصوت غليظ:

مَن الذي دخل إلى هنا ؟

فأجبته:

الشرطة والصحافة.

فحدقت عيناه إليّ في غضب شديد سائلًا:

مَن من الصحفيين ؟

فأجبته متألمة ولا زال ممسكًا بذراعي بعنف:

سالي مهران.

فترك ذراعي وانصرف مسرعًا.

وبعد ذلك أدركت أن هذه البطاقة وقعت حينما ارتطمتُ بآلة التصوير أثناء اتجاهي إلى النافذة لأمسك بماهر قبل سقوطه ، فبحثت عنها لكني لم أجدها.

وهنا ارتسمت على ملامح يوسف علامات الرضا قائلًا:

فهمت.

***

خطة جريئة

خرج يوسف من بيت ماهر يفكر في إنقاذ سالي ، ولا يعلم ما حالها بين هؤلاء الرجال ، فحرك ساعة يده بتتابع كعادته ، وأثناء ذلك جاءه اتصال من رقم مجهول فرد على الفور فربما يحظى بمعلومات أخرى ، فإذا به يسمع:

أنا داغر بدران.

فرد يوسف في حذر:

مرحبًا سيد داغر ..

فقال بدران بصوت مرتبك:

إبراهيم محجوز في المبنى الأسود ، يريدونه لاستكمال تطوير الفيروس القاتل ، أرجوك سيد يوسف ألحق به .. أرجوك ..

سمع يوسف بهذه المكالمة و قد ظهر أمامه ثلاثة أشخاص: سالي ، ابنة حامد ، وإبراهيم ، فأنهى المكالمة يفكر في طريقة ما لإنقاذهم ، وأثناء ذلك وجد ناحيته مقهى فارتجل ليدخلها و لكنه وقف فجأة محركًا ساعته يحدّث نفسه:

لا ، لا أستطيع ارتشاف القهوة دونك يا سالي.

فاستدار وخرج من المقهى ، ثم جلس في سيارته يفكر ويفكر ، حتى انتهى به التفكير إلى أن النائب ضرغام هو زعيم هذه المنظمة السوداء ، ثم استقر على مداهمة المبنى الأسود و وضْعِ يده على البطاقة الذكية ، و بقية الأدلة على إدانته حتى يستطيع رفع الحصانة من عليه ، فاتصل بحسام قائلًا:

مرحبًا حسام ، أريدك أن تقابلني في جريدة الخبر الناطق.

رد حسام بحماسة:

علم سيدي.

وفي الجريدة دخل يوسف وحسام على حامد مكتبه ، فرحب حامد بهما بصوت يغلبه الهم والحزن ، فنظر إليه يوسف وعندما بدأ حديثه قائلًا:

كيف حالك الآن يا حامد ؟

قال حامد في استياء:

خُطفت سالي أليس كذلك؟

رد يوسف في أسف:

بلى ، و أتيتك أنا والضابط حسام لإنقاذ ابنتك وسالي.

فقال حامد في شيء من الحماسة ولا يزال مهمومًا:

كيف؟ أخبرني يا يوسف، لا أريد أن يصيب ابنتي الأذى.

رد يوسف:

سندخل المبنى الأسود.

رفع حامد حاجبيه مستغربًا قائلًا:

المبنى الأسود ! كيف؟؟

نظر يوسف إلى وجه حامد محدقًا يفكر فيما ينبغي عليه فعله ، وأثناء ذلك قال حسام ينبهه:

سيد يوسف .. المبنى الأسود لا ثغرَ به ، فعندما راقبتُ الدكتور إبراهيم رأيت المبنى ثم تفقدته ، فواجهاته كلها زجاج

عاكس ، و له مدخل رئيسي موصد ، ومن الناحية الخلفية مدخل آخر ضيق كما رأيت ، ولم أجد سيارة تدخل المبنى فلا سرداب له بل أي سيارة تقف في الشارع الجانبي للمبنى فقط ، و من ثَم لن نستطيع الدخول من أي باب أو نافذة.

فقال يوسف:

أحسنت حسام ، عمل ممتاز أنك راقبت المبنى أيضًا.

فقال حامد:

هذا بالنسبة للشكل الخارجي للمبنى ، فماذا عن داخله؟

لا بد من معرفة نقاط قوته وضعفه ، فكيف نعرف ذلك؟

فكر يوسف هنيهة ثم قال:

الحل عند إبراهيم و هو محجوز في المبنى ، وبالتالي لا أحد سوى النائب بدران يستطيع مساعدتنا في الدخول.

رد حسام وحامد بصوت واحد:

صحيح، فكرة سديدة.

أجرى يوسف اتصالًا هاتفيًا بداغر ، فرد عليه في ضيق وقلق:

مرحبًا سيد يوسف ..

قال يوسف:

مرحبًا ، أين أنت الآن؟

رد داغر:

أنا بمعهد البحوث ، خيرًا ..

هل من جديد بشأن إبراهيم؟

أجابه:

إن شاء الله سيكون لدينا جديد ، أريدك في جريدة الخبر الناطق.

رد داغر:

لا أستطيع ، إن جئتُ إليك فلن أرى إبراهيم بعد اليوم ، و سأكون في عداد الأموات.

ارتسمت على وجه يوسف علامات الاستغراب والاستنكار ، وحسام وحامد ينظر كل منهما إلى الآخر في دهشة مما لاحظاه على وجه الرائد ، فسأله يوسف:

هل أنت مراقَب يا سيد داغر؟

أجابه داغر في ضيق:

نعم ، فلا مجال للحديث بيننا سوى التحدث عبر الهاتف ، هاتفني إذا جد جديد.

فقال يوسف:

إذًا اسمعني جيدًا ..

سنداهم المبنى الأسود ، وأعلمُ أن لديك معلومات كافية عن المبنى خاصة ما يتعلق بداخله من غرف وممرات.

قال داغر:

وماذا عرفتَ أيضًا؟

قال:

حكى لي إبراهيم كل شيء حتى الفيروس القاتل الذي صنعتَه ، وأعرف أنه كان تحت تهديد وضغط.

صمت داغر هنيهة ، ثم قال:

بمَ أساعدك؟

أجابه:

لن نستطيع اقتحام المبنى الأسود ، ولذلك لدي اقتراح وأريد منك أن تساعدني في تنفيذه .

استوقف داغر تحدّث يوسف بصيغة الجمع فسأله:

من أنتم؟

أجابه يوسف:

معي الضابط حسام.

فقال داغر:

دع الأمر لي سأتصرف وأخبرك، لكن ضع في اعتبارك أن الخطأ الواحد مع هؤلاء يقابله موت محقق.

قال يوسف:

بالطبع ، سنضع في اعتبارنا هذا الأمر نحن الثلاثة.

فسأله داغر:

من الثالث؟

رد يوسف:

أنت معنا ، إن لم يكن لديك مانع.

فقال داغر بصوت مضطرب:

أنا !!! أنا !!!!

ثم فكر قليلًا فيما اقترفه من ذنب ، و تورط تلميذه المقرب إلى قلبه ، فقال بصوت تخالطه الحماسة:

حسنًا سيد يوسف ، أنا معك ، وسأكون إلى جانبك للتخلص

من شر هؤلاء ، عسى الله أن يغفر لي ما اقترقته يداي.

ارتسمت على وجه يوسف ملامح الابتسامة و التفاؤل قائلًا:

كن على ثقة أيها النائب أن جهدك معنا لن يضيع سدى ، و ربما نستطيع التخلص من هذا الفيروس أثناء تواجدنا هناك.

أنهى يوسف المكالمة فنظر إليه حامد مستغربًا قائلًا:

أ لن أذهب معكم؟!

رد يوسف:

لا يا حامد ، عدلتُ عن هذه الفكرة ، فالأفضل أن تنتظر بعيدًا عن المبنى لسلامة ابنتك ، لكن سيكون بيننا اتصال ، وسوف نحدد ذلك.

***

المبنى الأسود

في المبنى الأسود رجال يعملون بجد وصرامة ، لا يعرفون معنى الخطأ في عملهم ، كلٌ منهم يرتدي في يده ساعة إلكترونية تبدو عادية لكنها تحمل في ذاكرتها شفرة محددة خاصة بصاحبها ، كما تتضمن إمكانية تحديد موقع مرتديها.

أما إبراهيم فقد ظل في المعمل المتطور بأعلى التقنيات الحديثة ، حيث يقوم بتطوير الفيروس القردي الفتاك ، وبينما هو كذلك إذ سمع صوت جرس الانتهاء من الساعات الأولى لعمله في المعمل لتبدأ فرصة يأخذ فيها قسطًا يسيرًا من الراحة ، فجاءه الرجل صاحب الشفرة (ن) كي يلازمه إلى غرفة الاستراحة المجاورة للمعمل ، فجلس إبراهيم و عقله في تفكير متواصل لا ينقطع ، متى يصحو من الكابوس الذي أمسى رفيقًا له ؟!

وأين الرجل صاحب الورقة السوداء ؟! لم يلبث على هذه الحال حتى وجد اتصالًا جاء إلى صاحب الشفرة (ن) ، فخرج فجأة من الغرفة ليدخل صاحب الشفرة (م) مكانه ، وبعد لحظات سمع صوت جرس لبداية الساعات الأخرى للعمل.

أما الطفلة لارا التي ظلت محبوسة في غرفة تابعة للممر الثاني في الطابق الثالث ، فقد استمرت في بكائها وصراخها ولكن بلا جدوى ، فالأبواب من حولها سوداء موصدة ، لا يُسمع لها صوت فسيطر الخوف والرعب عليها ، وعيناها تتحرك يمينًا

ويسارًا بارتجاف حتى كاد قلبها يتوقف ، فجاءها صاحب الشفرة (ب) وضرب جهازًا به مادة مخدرة في أسفل رقبتها دون أن يهتز له جفن ، وعلى إثرها دخلت في سبات عميقًا ، وفجأة سمع صاحب الشفرة (ب) صوت جرس خاصًا به فذهب تلبية لنداء زعيمهم ، وعندما وصل هذا الرجل إلى طابق الزعيم وجد صاحب الشفرة (ن) عنده ، فكلفهما الزعيم بالذهاب إلى مركز الأبحاث التابع لداغـر بدران لاستـلام كمية كبيـرة هذه المـرة من معدات و تركيبات خاصة بالتجارب البيولوجية ، فخرجا من المبنى.

***

المداهمة

مر من الوقت أربع ساعات ثم وصل الرجلان المُكلَّفان إلى المبنى وهما يحملان المعدات متجهيْن إلى غرفة التخزين ، لكن صاحب الشفـرة (ن) أخـذ صنـدوقًا من التركيبـات الخاصـة بالتجارب البيولوجية ذاهبًا بها إلى المعمل ، فدخل على إبراهيم بهذا الصندوق و وضعه جانبًا ينظر إلى إبراهيم وهو يعمل بنظرات جانبيه دون أن يلتفت إليه ، ثم خرج ليقف عند الباب.

أما الآخر فقد خرج من غرفة التخزين متجهًا نحو المصعد لينزل به إلى الطابق الثالث فيدخل الممر الأول ذي الغرف الموصدة كحارس لهذا الممر ، فاستمر هذا الحارس في السير والتنقل بين الغرف الموصدة ، لا يَسمع فيها صوتًا ولا حركة والإضاءات الحمراء تومض بين الحين والآخر ، و هو يراقب بعينيه أبواب الغرف ، وفجأة وقعت عيناه على منديل وردي اللون محشور و مطبق تحت الباب ، فاتجه إليه فمد يده أسفل الباب يحاول الإمساك بالمنديل حتى التقطه ففتحه فإذا به يقرأ:

شكرًا

لمعت عيناه حينها ممسكًا بالمنديل بقوة ، فقام بإخفاء المنديل في كُمّ يده اليسرى تحت ساعته فإذا به يحرك ساعته بتتابع ، ثم وضع إصبعه على زر في اللوحة إلكترونية بجانب الباب ففُتح ، فوجد سالي جالسـة على ركبتـيها على الأرض تبـكي ، فمد يديه ممسكًا بيديها يشدها حتى وقفت في ذهول واضطراب ، وعيناها غاضبتان قائلة:

إلى أين ستأخذني أيها الحقير؟

فرد عليها متبسمًا:

أنا يا سالي ، أنا يوسف خلف هذا القناع ، لا تخافي ..

ظلت سالي في ذهول وقلق ، و لا تزال الدموع تذرف من عينيها فقال لها بصوت خافت:

لا تصدري صوتًا فلا أعلم إن كنا قد كُشفنا أم لا ، المبنى كله مزود بأجهزة مراقبة ، فاحترسي.

سمعت سالي هذه العبارت فاطمأن قلبها قليلًا قائلة:

كنت أعلم أنك ستأتي لإنقاذي ، ولذلك تركت منديلي الوردي تحت الباب حتى تعلم مكاني .

رد يوسف:

وكيف لا آتي لإنقاذك يا سالي ، و بدونك لن أستطيع احتساء القهوة ..

فنظرت إليه سالي متبسمة وعينا يوسف تتأمل في عينيها ، وهما في الغرفة منتظران مكالمة من داغر ، لكنها سألته مستغربة:

كيف فتحتَ باب هذه الغرفة؟!

فأجابها:

الفضل يرجع إلى داغر بدران ، حيث قام في معمله بأخذ بصماتٍ لصاحبيْ الوجهين الذيْن نرتديهما لينسخ منها بصمات مطابقة لها تمامًا ، بعدما تم حبسهما في المعمل .

أبدت سالي إعجابها بفكرة البصمات ، فأثنت على صنيع داغر.

أما في المعمل فقد سمع إبراهيم صوت جرس لبداية فرصة أخرى بعدما أمضى وقتًا طويلًا في عمله ، فخرج منه بصحبة الحارس حتى دخلا غرفة الاستراحة ، فجلس إبراهيم منهكًا متعبًا فإذا بالحارس يقول له بصوت منخفض:

هون عليك يا بني ، لا تستسلم.

فاتسعت عينا إبراهيم مندهشًا فسأله:

كيف وصلت إليّ يا أستاذي؟! ماذا سنفعل؟

رد داغر مرتديًا قناع الحارس صاحب الشفرة (ن):

انتظر قليلًا ، فأنا وصاحبك هنا.

دق الجرس فقام إبراهيم بصحبة داغر إلى أن دخل المعمل. ثم ذهب داغر تجاه المصعد لينزل إلى الطابق الثالث متصلًا بيوسف عبر جهاز اتصال صغير جدًا واضعه في زر من أزرار القميص ، قائلًا بصوت خافت:

وجدت إبراهيم في المعمل.

فرد يوسف ونظراته تراقب باب الغرفة وبيده سلاحه:

وجدتُ سالي في إحدى الغرف بالممر الأول ، لكن لارا لا تزال مختفية ، والغرف كلها مصفحة و .....

في ذلك الوقت ظهر رجل من رجال المبنى عند الباب فرآه رافعًا يده يصوب عليه بالسلاح ، فأطلق يوسف طلقة كاتمة للصوت مباشرة في سرعة أصابت رأس الرجل ، فأصاب سالي الذعر ، فأمسك يوسف بيدها خارجيْن من الغرفة منطلقيْن نحو المصعد ، فرأى المصعد يفتح بابه في نفس الطابق و هو يصوب إليه بسلاحه فإذا به يرى داغر ، فدخل معه المصعد قائلًا:

كُشف أمرنا يا داغر.

قال داغر في عجلة:

لا تقلق سيد يوسف ، الله معنا .

أذكّرك بأننا الآن في الطابق الثالث ، وغرفة التخزين و المعمل الذي حُجز فيه إبراهيم في الطابق السادس ، أردتُ أن أذكرك لأن المبنى كله متاهات كما ترى ، وكل الطوابق سوداء وغرف مصفحة ، احذرا.

رد يوسف:

لماذا تقول ذلك؟

هل سنفترق؟

أجابه:

نعم ، لا بد من هذا حتى لا نقع جميعًا في مصيدتهم...

هذا رأيي ، ولك حرية التصرف أيها الرائد.

فقال يوسف:

وأنا أؤيدك ....

بينما يوسف يحدّث داغر فإذا رصاص يُطلق على غفلة تجاههم ، فأطلق داغر في سرعة طلقتين أصابت صدر أحد رجال المبنى ، لكن سالي كان لها نصيب من طلقة مطلق الرصاص أوقعتها أرضًا تتأوه ، فجثا يوسف يسألها:

هل أنت بخير؟

ردت بصوت متألم:

أصيبت كتفي ، لا تقلق.

فحملها على ظهره قائلًا:

من الأفضل يا داغر أن تذهب إلى الطابق السادس حيث يوجد إبراهيم والتركيبات المطلوبة ، هيا هيا... ، لكني سأنزل بسالي إلى الطابق الأرضي أولًا .

رد داغر:

حسنًا ، بسرعة ..

نزل المصعد بهم ، فوقف في الطابق الأول ، ويوسف وداغر متأهبان للقتال ، ففُتح البـاب فإذا أحد رجـال المـبنى ضخم الجثة واقف أمامهما فكاد يطلق عليهما إلا أنهما أطلقا معًا طلقتين أصابتاه ، فأسرع داغر يضغط على اللوحة الإلكترونية للمصعد لينزل ، و عند الطابق الأرضي فُتح الباب فوقف داغر على حافة الباب يلتفت في حذر يمينًا ويسارًا ، وعندما اطمأن خرج يوسف من المصعد مسرعًا حاملًا سالي على ظهره ، فاتجه أمامه لكنه انتبه إلى البوابة الرئيسية فرآها تُفتح ، فركض بسالي سريعًا متجهًا خلف المصعد حيث وجد الباب الخلفي وبجانبه الدرج ، فاختبأ تحت الدرج وراء لوح إلكتروني كبير ، وظل هكذا إلى أن تأكد من خلو الطابق من رجال المبنى ، فوجه نداءه إلى سالي:

سالي سالي .. ردي عليّ .

لكنها لم تجب ، فأنزلها من على ظهره إلى الأرض ليطمئن عليها فوجدها فاقدة الوعي ، فاتصـل بحسـام قائلًا بصوت خافت:

حسام حسام ، هل تسمعني؟

رد عليه حسام:

نعم سيدي ، أنا في السيارة خارج المبنى.

قال يوسف:

سالي مصابة ، فاقدة الوعي ، نريد تعزيزًا فقد كُشف أمري وتبادلنا إطلاق النار.

أجابه حسام:

علم سيدي.

أجرى حسام اتصالًا هاتفيًا بضابط صديقه قائلًا:

مرحبًا يحيى بدأت المهمة ، فهل أنت على عهدك؟

رد عليه الضابط يحيى:

نعم يا حسام ، لا تقلق لم يعلم أحد عن ذلك شيئًا ، وقد أقنعت صديقنا الضابط محمد وهو معي ، أين أنت؟

قال حسام:

أمام المبنى الأسود ، لا تتأخرا فهناك تبادل إطلاق النار ، سأرسل إليك الموقع.

رد يحيى:

نحن في الطريق

وأثناء ذلك خرج داغر من المصعد في الطابق السادس ولا يزال على وجهه الوجه المستعار ، فدخل غرفة الاستراحة لكنه لم يجد أحدًا ، ثم نظر من باب المعمل فوجد إبراهيم لا يفتأ يعمل ، وفجأة أحس بقدوم شخص من ورائه ، فالتفت في حذر فإذا به يرى النائب ضرغام واقفًا ينظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة

مريبة فحاول إخفاء ارتباكه وراء قوله:

هل تأمر بشيء سيدي؟

رد عليه ضرغام ولا تزال تلك الابتسامة على وجهه:

لا لا .. افتح الباب.

فتح داغر باب المعمل ، وقد أوشك إبراهيم على الانتهاء من تطوير الفيروس ، فجاءه صوت من ورائه يقول:

أحسنت صنعًا دكتور إبراهيم.

انتفض إبراهيم فزعًا ، فالتفت وراءه فإذا به يفاجأ بالنائب ضرغام ، فصمت هُنيهة ثم قال:

بقي القليل و سأنتهي.

رد ضرغام:

لا بأس ، سأنتظرك هنا في المعمل.

وبعد لحظات استدعى ضرغام مساعده أدهم باستخدام جهاز تكنولوجي بحجم الكف تم فيه تخزين أسماء رجاله و أعمالهم ، محددًا شفرة خاصة وصوتًا مميزًا لكل منهم ، فضغط على الزر الإلكتروني الخاص بأدهم ليستدعيه.

وبعد دقائق معدودة دخل أدهم المعمل ، و داغر واقف بجانب الباب يفكر فيما يحدث أمامه ، وبعد دقائق انتهى إبراهيم من التطوير فإذا بضرغام يشير برأسه إلى الأسفل رافعًا عينيه محدقًا ببصره إلى أدهم ، فخرج أدهم من المعمل يخطو خطوات سريعة إلى آخر الممر ، ثم أحضر عربة بصندوق محكم من غرفة سرية ، فدخل بها إلى المعمل ليفتح الصندوق ، فنظر

إبراهيم إليه متعجبًا ، فإذا به يرأى طفلة صغيرة لا تتحرك ، فدب الرعب والفزع في قلبه ، وعيناه مفتوحتان دون حراك من الصدمة قائلًا بلسان متلعثم:

ماذا ؟ ماذا؟

طفلة !! طفلة !! لم نتفق على ذلك.

فقال ضرغام:

وأنا أيضًا لم أتفق معك على الخيانة.

وأثناء ذلك صوَّب أدهم الجهاز الإشعاعي نحو جبهة إبراهيم فوقع على الأرض ، فاقتحم داغر الباب مسرعًا إليه وبصوت عالٍ مضطرب:

إبراهيم .. إبراهيم ، انهض يا بني ..

فصوّب ضرغام سلاحه المدمر نحو رأس داغر قائلًا:

انزع هذا القناع ، هيا ..

فنظر إليه داغر في ذهول من كشفه حقيقته ثم قال:

وكيف عرفت؟!

رفع ضرغام يده الأخرى ممسكًا جهاز الاستدعاء التكنولوجي قائلًا:

أ رأيت هذا الجهاز أيها النائب؟

إذا قمتُ بالضغط على اسم حارس المعمل صاحب الشفرة (ن) هكذا .....

فضغط بإصبعه على هذا الزر ثم استكمل:

فهل تم استدعاؤك؟ هل سمعت صوتك المميز ؟

أنا هنا يأتيني موقع صاحب الشفرة (ن) في المعمل ، بل أعطاني هذا الجهاز الذكي موقعه الآن في مركز البحوث الخاص بك.

في هذه اللحظة شعر داغر وكأن الصدمة داهمته مما فعله ضرغام وعرفه ، ففَهم أنه ويوسف كانا مراقبيْن من أول ولهة سائلًا نفسه:

أين يوسف وسالي الآن؟

فسأله ضرغام:

فيم تفكر ؟

هل اعتقدت أن خطتك أنت ويوسف ستنجح معي؟

يا لك من واهم!!

رد داغر:

لولا هذه الخطة لما دخلنا هنا.

رد ضرغام في سخرية:

نعم ..نعم ... تحبسان اثنين من رجالي الأكفاء ، وتصنعان وجهين مشابهين تمامًا لهما ، ثم تأتياني كأنكما من أتباعي حتى تدخلا غرفة التخزين السرية ، ولكن فاتتكما الساعات السرية التي يرتديها رجالي بفضل ذكائي وعبقريتي ... يا لها من خطة محكمة بارعة !

في هذه اللحظة لم ينطق داغر ببنت شفة بل جلس على الأرض بجانب إبراهيم ، وعيناه مملوءتان بالدموع على ضياع إبراهيم منه بسبب خطئه ، لكن ضرغام استطرد حديثه قائلًا:

هيا يا داغر قم .. قم وأجري التجربة على هذه الطفلة.

قام داغر في ثقل ، ثم نظر إلى الطفلة فعلم أنها الطفلة التي يبحث عنها يوسف ، فما هذا المأزق؟

وكيف ينقذها؟

وأثناء ذلك وصل الضابطان إلى الضابط حسام وقد استعدوا جميعًا لاقتحام المبنى من الباب الخلفي ، وتحركوا إلى الباب الموصد فحاول أحدهم فتحه ، فسمع يوسف صوت حركة لمحاولة لفتح هذا الباب ، فقام حاملًا سالي على ظهره وأطلق على الباب الرصاص بسلاحه الكاتم للصوت ، فرد عليه حسام بطلقات على الباب من نفس نوع السلاح إلى أن فُتح ، فأخذ الضابط محمد سالي ليذهب بها إلى أقرب مشفى بسيارة أجرة.

أما حسام ويحيى فدخلا إلى يوسف ، وفجأة أحس حسام بيد أحدهم على كتفه ، فالتفت على غفلة مصوبًا سلاحه فإذا به يجد حامدًا ، فقال يوسف متعجبًا:

كيف وصلت؟!

رد عليه حامد:

تتبعتُ سيارة حسام وانتظرت إلى أن دخل فدخلت.

فابتسم يوسف نازعًا الوجه المستعار ثم قال:

هيا بنا ، فالوقت ليس في صالحنا.

فتحركوا تجاه المصعد في حذر متأهبين للقتال ، يلتفتون هنا هناك ، وفجأة سمعوا صوت المصعد فانقسموا في أنحاء الطابق ، فإذا بهم يجدون أربعة رجال من المنظمة مسلحين

يبحثون عنهم فتبادلوا إطلاق النار حيث حامد من وراء اللوحة الإلكتروني أسفل الدرج ، و يحيى عند حاجز عريض في الجانب الآخر من الساحة ، وحسام في الغرفة المملوءة بالمخلفات ، أما يوسف فقد صعد على الدرج يواجه أحدهم حتى قضى عليه ، ثم ألقى نظرة على رفاقه ولم يسمع صوت أحدهم ، فأخذ ينادي حسام حتى ظهر هو و رفاقه ، وقد قضى جميعهم على رجال المبنى ، فاجتمع بهم عند اللوحة الإلكترونية ، واتفق معهم على طريقة لإنجاز المهمة.

اتجه حسام وحامد إلى المصعد للوصول إلى الطابق السادس حيث غرفة التخزين والمعمل ، أما يوسف و يحيى فصعدا على الدرج ، لكنهما أثناء مرورهما على الطابق الأول باحثيْن عن الطفلة ، وجدا رجلين مسلحين يقفان في منتصف ممر الطابق يصوبان تجاههما السلاح ، فتم تبادل إطلاق الرصاص حتى أطلق يوسف طلقة أصابت أحدهما في صدره أوقعته طريحاً على الأرض ، بينما أطلق الآخر طلقة أوشكت أن تصيب يوسف فقفز يحيى أمامه بسلاحه مطلقًا الرصاص حتى أصابت الآخر في صدره أودت بحياته ، ثم استكملا الصعود إلى الطابق الثاني فقابلا رجلين آخرين مسلحين في بداية الممر ، فأشار يوسف إلى يحيى بأن يطلقا الرصاص معًا على الرجلين في آن واحد فقضيا عليهما ، ثم صعدا إلى الطابق الثالث فلم يجدا أحدًا من الحراس ، فاستكملا اقتحام الغرف لكنهما وجدا غرفة واحدة مفتـوحة فارغـة ، فتأكـد يوسـف أن الطفـلة في خطـر حيث وجـد

حذاءها ملقى على الأرض جانبًا داخل الغرفة ، فاتجها نحو الدرج ليصعدا إلى الطابق التالي ، وفي هذا الطابق وصل إلى مسامعهما خبر إصابة إبراهيم بعد انتهائه من تطوير الفيروس ، و ذلك أثناء تبادل الحديث بين حارسيْ الطابق ، وهما في الغرفة المجاورة للدرج مما أغضب يوسف ويحيى ، فانطلقا مقتحميْن الغرفة ليقضيا على الحارسين فانتهى أمرهما ، ثم استكملا طريقهما ليصلا إلى الطابق السادس ، ولكن أثناء مرورهما بالطابق الخامس أُطلقت رصاصة مفاجئة عليهما لتصيب يحيى في ذراعه اليمنى ، فشده يوسف في سرعة نحو الدرج يجلسه ، بينما ظل هو واقفًا وراء الجدار يطلق الرصاص على حارس الطابق حتى أصابت رأسه ، ثم استكمل يوسف الصعود على الدرج آخذًا بيد يحيى للوصول إلى الطابق السادس.

***

كشف المستور

أما حسام وحامد فانتهى بهما المصعد إلى الطابق السادس ، حيث وقف حسام على حافة الباب ، يلتفت يمينًا ويسارًا إلى أن اطمأن ثم اتجها إلى غرفة التخزين بخطوات خفيفة ، وأمام الغرفة أطلق حسام طلقات متتابعة على الباب حتى فُتح ، وفي الداخل وجدا في ذهول تام كمًّا كبيرًا من المعدات والتركيبات الخطيرة والنادرة ، فالتقط حامد صورًا لهذه البضائع ، وحسام يراقب المكان ثم سأله:

هل جهزت عدتك للتصوير؟

أجابه حامد:

نعم بالطبع ، جئت إلى هنا لإنقاذ ابنتي وتصوير كل ما يدين هذه المنظمة البغيضة ، ومعي أيضًا آلة تصوير لن يرها أحد وأنا ألتقط كل شيء صوتًا وصورة ، هذا ما طلبه مني الرائد يوسف.

فقال حسام:

ممتاز ، هيا بنا.

سار كل منهما في الممر ، وأثناء سيرهما مرا على غرفة يجهلان هويتها ففتحا الباب ، فإذا بهما يريان شاشتي عرض كبيرتين لكنهما خرجا من تلك الغرفة ليمضيا نحو هدفهما ، فخطرت لحسام فكرة فقال:

انتظر يا أستاذ حامد قليلًا ، لا أريد أن تكون الكرات كلها في

سلة واحدة .

فهم حامد مغزى كلامه فقال له:

حسنًا سأسبقك إلى المعمل لأصوِّر كل ما أراه.

رد حسام:

نعم وسأكون وراءك بخطوات لأحمي ظهرك.

فتابع كل منهما السير ، وأثناء ذلك وقف حسام أمام غرفة موصدة فظن أن الطفلة قد تكون بداخلها ، و فجأة رأى الباب يُفتح فاختبأ جانبًا حتى خرج رجل منها يغلق بابها فأسرع حسام لضربه على رأسه بالسلاح ضربة أسالت دمه أفقدته الوعي ، فجرَّه إلى زاوية بعيدة ثم دخل الغرفة ، وأثناء ذلك استمكل حامد طريقه مصورًا ما يراه صوتًا وصورة حتى وجد نفسه أمام باب كبير ، و على يساره غرفة مفتوحة فدخلها بحذر لكنه لم يجد شيئًا سوى مقعدين وطاولة ، فرفع عينيه فإذا به يرى جهاز مراقبة فارتبك قليلًا راجعًا إلى الوراء حتى ارتطم بحائط ، فالتفت يساره متجهًا بحذر شديد إلى باب كبير ذي نافذة زجاجية صغيرة ، فنظر من خلالها في حركة بطيئة فإذا بعينيه تتسعان فجأة ليرى النائب ضرغام مالك يصوب سلاحه إلى رأس داغر فلا يصدق ، هل ما رآه حقيقة ؟! و بينما هو على هذه الحال فإذا به يثبت في مكانه فجأة بسلاح يدفعه من خلفه ليُلقى على الأرض داخل المعمل ، فغلبه الفزع و هو يرى إبراهيم على يساره ملقى على الأرض لا يتحرك ، و داغر واقف لا حول له ولا قوة ، و مساعد ضرغام على يمينه يقف بجانب صندوق يجهله ، فالتفت وراءه ليجد العقرب العدو اللدود ،

وأمامه زعيمهم ضرغام مالك ، فظل في مكانه رهبة ، فقال ضرغام بصوت عالٍ فيه شيء من الاستعراض:

ها هو حامد ، والد الطفلة قد أتى ليرى مشهدًا لم يره ولن يراه أبدًا.

فأصاب حامدًا الذعر أكثر وأكثر على ابنته قائلًا:

ماذا فعلت بابنتي؟

فأشار ضرغام إلى العقرب ، فأمسك العقرب بذراع حامد لينهض ، فاتجه به إلى الصندوق فإذا يرى فلذة كبده نائمة بلا حراك ، فدفع يد العقرب عنه ، ثم وضع يديه على ابنته يفحص حرارتها وحركة نبضات قلبها التي أصبحت بطئية بعض الشيء ، فأطلق صراخه:

لا لا ، ابنتي حبيبتي .. استيقظي ..

ماذا فعل هؤلاء المجرمون بك؟؟ ستنالون عقابكم.

فصاح العقرب:

أنت ... لا تثرثر .. ابنتك في قبضتنا وكلكم محاطون ، أين الضابط حسام؟ أ لم يكن معك؟

في هذه اللحظة أدرك حامد أن حسام قد قُتل ، والآن هذه نهايته ، فظل ينظر إلى ابنته صامتًا يقبِّل يدها ، والمطر ينهمر من عينيه ، فوجه داغر حديثه إلى ضرغام قائلًا:

ماذا تريد يا ضرغام؟

رد ضرغام مخفضًا سلاحه قليلًا:

أريد تجربة الفيروس القردي القاتل لأرى نتائجه وإلى أي مدى يمكن أن يدمر خلايا الإنسان ، فيُدمر العالم كله.

فإن حققتُ ذلك فسأجعلك أنت و مركزك البيولوجي تابعًا لي لاختراع لقاح يعمل على توقف الفيروس نهائيًا ، ومن هنا أحكم العالم و أجني أموالًا طائلة لا حدود لها من وراء اللقاح.

فسأله داغر:

وما ذنب هذه الطفلة المسكينة؟

رد ضرغام:

ذنبها والدها الذي اعترض طريق عملنا فأخذناها في طريقنا.

قال داغر:

ضرغام .. أنت أستاذ في علم الكيمياء النووية والإشعاعية ، عالم ذكي بتجاربك واختراعاتك ، و الله تعالى لم يخلق مثل هذه العلوم لاستغلالها في تدمير البشرية و البيئة من حولنا ، بل لنجعل منها طريقًا آمنًا نبلغ من خلاله كل ما هو جديد في صالح البشرية والإنسانية لنعيش عصرًا تكنولوجيًا متطورًا جديرًا بنا نحن البشر ، و من هنا ستتحقق أمنياتنا مالًا وقوة و راحة.

رد ضرغام في غرور:

بدأتُ صغيرًا لا قيمة لي في وظيفتي ، ولكن عندما عدلتُ عن ذلك لأجرب عالمًا لا يعرف إلا معنى المصالح الشخصية ، أنشأت هذا المبنى على حسابي ليخضع الكل لي ، وها أنذا أمامك لا يستطيع أحد أمثالكم أن يقف في طريقي.

قال حامد واقفًا ويده في يد ابنته:

لا .. بل على حساب الآخرين ، على حساب حياتهم وكرامتهم ..

وفي هذه اللحظة وصل يوسف ممسكًا بيحيى إلى الطابق السادس ، ثم واصلا السير في الممر يبحثان عن رفاقهما ، وأثناء ذلك استوقفتهما غرفة على يسارهما مفتوح بابها فدخلاها ، فإذا بهما يجدان حسامًا ملقى على الأرض غارقًا في دمائه ، فذرفت دموع يحيى ألمًا ، أما يوسف فقد جثا على ركبتيه مقتربًا منه وقد اتضح أنه فارق الحياة قائلًا:

أنا سبب قتلك ، ظللتَ وراء هذه القضية حتى قضتْ عليك .. رحمة الله عليك يا صديقي.

قام يوسف غاضبًا عازمًا على الاستمرار ، آخذًا حق صاحبه ، فخرجا من الغرفة واستكملا طريقهما حتى وجدا بابًا أمامهما خلفه أحاديث مختلفة ، فتدارى كل منهما جانبًا ، فألقى يوسف نظرة من النافذة الزجاجية بالباب ، فإذا به يرى ذلك المشهد والجميع مجتمِع ، أما يحيى فذُهل من رؤية النائب ضرغام زعيم المبنى ، و بينما يوسف واقف في جانب و يحيى في الجانب الآخر ناحية غرفة الاستراحة ، أشار ليحيى ليدفع الباب بقدميه على غفلة ليستدرج أحدهم ، وعندما دفع الباب التفت العقرب إليه مسرعًا إلى خارج المعمل باتجاه الغرفة ليقتل يحيى ، فأطلق يوسف طلقة في مؤخرة رأسه ليهوي إلى الأرض ، فأمسك ضرغام داغرًا مصوبًا إلى رأسه السلاح ، أما حامد فانتهز الفرصة ليحمل ابنته فإذا بأدهم مساعد ضرغام يصوب سلاحه تجاهه ، ومن ثَم وقف يوسف ويحيى رغم إصابته في نفس الوقت مقتحميْن البـاب يصوبان سلاحهـما نحو ضرغـام

ومساعده فقال ضرغام:

وأخيرًا التقينا أيها الرائد ، جيد أنك وصلت إلى هنا مع داغر .

والآن ماذا ستفعل .. أتعتقلني؟!

أنا نائب وعندي حصانة ، ماذا ستفعل؟

فرد يوسف:

اترك حامد وابنته ، و دعْ داغر يسعف إبراهيم الذي طوّر لك الفيروس.

رد ضرغام:

أ حقٌ هذا ؟! ليس لأحد فضل عليّ ، لولا تهديدي لما فعل شيئًا.

فصوب يوسف سلاحه تجاه أدهم يدفعه به، قائلًا:

اترك حامد وابنته ، هيا..

لم يبقَ أحد هنا على قيد الحياة يا ضرغام ، وإن لم تخبره أن يدع حامد وابنته فسأقتله.

أشار ضرغام لمساعده أن يتركهما يذهبان ، فقال يوسف لحامد:

اذهب بسرعة يا حامد وألحق بابنتك ، واذهب معه يا يحيى.

فقال يحيى:

كيف يا سيد يوسف ! لن أتركك وحدك.

فأعاد عليه في حزم:

اذهب معه واخرجا من المبنى.

فانطلق يحيى ومعه حامد وابنته ، فإذا بأدهم ينتهز الفرصة

ليحاول نزع السلاح من يد يوسف ، ويوسف يحاول التمسك بسلاحه فتشاجرا بالضرب واللكمات ، و يد كل منهما على السلاح بالتناوب تطلق طلقات عشوائية ، وضرغام واقف بثبات ولا يزال مصوبًا سلاحه نحو رأس داغر في حذر ، وفي لحظة أخرج أدهم سكينًا من حذائه ليطعن يوسف ، فأسقط يوسف السكين من يده بضربة سريعة مفاجئة ضاربًا بساقه ركبة أدهم فأوقعه أرضًا.

أما يحيى ومن معه فقد خرجوا من المبنى ، فإذا بهم يقابلون عددًا من الرجال يريدون الدخول لكنهم مختلفون عما عليه رجال المبنى ، فاستوقفهم يحيى يسألهم:

من أنتم؟ ماذا تريدون؟

أجابه أحدهم:

نحن باحثون بمركز الدكتور داغر ، و هو معلمنا وجئنا لمساعدته ومعنا أسلحتنا.

فدلَّهم يحيى على الطريق داخل المبنى وقد اطمأن على يوسف.

***

اللحظات الأخيرة

أما يوسف فقد أمسك بمساعِد ضرغام في قوة بعد تلك المشاجرة ، و ذراعه حول عنقـه و سلاحه في اليـد الأخرى لكن ضرغام ظل ثابتًا ، و لم يترك داغرًا بل أخرج فجأة جهازًا صغيرًا من جيبه قائلًا:

يوسف ، إن لم تدعْ أدهم فسأشغل العد التنازلي للقنبلة.

تفاجأ يوسف بذلك و لكنه ظل مكانه ممسكًا بأدهم ، فقام ضرغام بالضغط على زر التشغيل ليبدأ العد التنازلي ، وأثناء ذلك داهَمَ الباحثـون البيولوجيـون المعمـل على غفلة من ضرغـام ، فقال بصوت مضطرب:

ما هذا ؟ من أنتم ؟ كيف اقتحمتم المبنى؟!

فرد عليه قائدهم في حِدة:

ضرغام ، إن لم تترك أستاذنا فسنضربك بأسلحتنا ... أتعرفها؟

فسأله و قد بدأ يهتز:

ما هي؟

رد قائد الباحثين:

إنها أسلحة بيولوجيـة سنطلقـها جميعـها عليك أنت ومساعدك.

في هذه اللحظة فقط شعر ضرغام بالخوف والاضطراب قائلًا:

لا لا ، لا تؤذوا بها أخي ، إذا لم تنفذوا أوامري سننفجر جميعنا.

لكن الباحثيـن صـوبوا الأسـلحة بأنواعها نحـو أخيه ، فقال قائدهم:

أوقف العد التنازلي وإلا سنطلق الآن.

كان ضرغام ينتظر مرور الوقت للانفجار ولكنه رأى أنه مازال لديه عشر دقائق فلا مفر ، فوضع إصبعه على زر الإيقاف ليوقفه تاركًا النائب داغر يحمل إبراهيم ذاهبًا مع الباحثين مسرعين نحو المصعد ، و داغر ينادي يوسف:

هيا بنا يا يوسف ..

ترك يوسف أخا ضرغام وانطلق فجأة خارج المعمل ، فأغلق الباب وراءه بإحكام مسرعًا في طريقه يلحق بالباحثين ، فنظر ضرغام إلى جهازه فإذا العد التنازلي لا يزال مستمرًا ، وبقي من الوقت عشرون ثانية ، فانتفض آخذًا بيد أخيه يركضان في الطابق يبحثان عن نافذة مفتوحة و لكن بلا جدوى ، وأثناء نزول يوسف على الدرج انفجر المبنى بدءًا من الأعلى ، ويوسف يسارع الزمن في نزوله ، و النيران تلتهم كل شيء من ورائه حتى خرج من المبنى الأسود ، وكأن اللهيب دفعه خارجًا فارتطم على الأرض مصابًا بجراح طفيفة من شظايا الانفجار ، فأسرع الباحثون يحملونه إلى أقرب مشفى.

***

و بعد مرور عدة أيام وقف يوسف أمام المقهى في وسط البلد ،

ينظر إلى ساعته فحركها بتتابع كعادته ، فإذا يدٌ تمسك ساعته فوجدها سالي تقول له:

في المرة القادمة سأثبّت ساعتك في يدك.

ابتسم يوسف ضاحكًا:

يااااه يا سالي ، أ لم أقل لك من قبل إنني لا أستطيع احتساء القهوة دونك؟

أتيتُ إلى هنا من قبل وحيدًا لكني لم أستطع البقاء فسرعان ما غادرت ، ولم أحتمل احتساء القهوة دونك.

فارتسمت ملامح الابتسامة خجلًا قائلة:

لا تقلق يا يوسف ، سنظل معًا دومًا.

****

تمت بحمد الله

وإلى لقاء آخر قريبًا.